الإرساليّات الكَرمَلِيّة في الشرق الأوسط

" بلادُ فارس وبلادُ ما بين النَهرين "

المئوية الرابعة لقدوم الرهبان الكرمليين إلى العراق (1623 – 2023)

رهبانية الإخوة الكرمليين في العراق

الإرساليّات الكَرْمَلِيّة في الشرق الأوسط

" بلادُ فارس وبلادُ ما بين النَهرين "

بغداد ، **في** 16 **تموز** 2026

عيد مريم العذراء سيدة جبل الكرمل

الفهرس

مقدّمة 4

1 الفكر الإرسالي عند القدّيسة تريزا والكرمليّين الأوائل 5

2 أوائل الكرمليّين المرسلين الى بلاد فارس والخليج 9

إرساليّة بغداد حتّى العام 1773 13

زمن المحن 18

استعادة النهوض في بلاد ما بين النهرين في القرن التاسع عشر... 23

إرساليّة بلاد ما بين النهرين في مرحلة ما بين الحربين 28

الإرساليّة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والوضع الحاضر .. 34

إرسالية الكرمل في العراق من 1985 إلى 2022 43

أعوام الثمانينيات 43

أعوام التسعينيات 44

الأعوام 2000 – 2008 46

الأعوام 2008 – 2011 50

الأعوام 2011 – 2014 53

الأعوام 2014 – 2020 55

الأعوام 2020 – 2022 62

الكرمل في العراق: مسيرة تتواصل (2023 – 2026) 65

عائلة كرملية حَيّة حَوْل راهبٍ واحد 66

دير دهوك: مفاجأة الله في الشمال 67

من المحنة تخرج رسالة: الكرمل يعبر الحدود 68

مدرسة القديس يوسف: قيامة بعد أربعةٍ وأربعين عاماً 69

كنيسة مريم العذراء في منطقة الشورجة: شمعة لا تنطفئ 69

سنوات عصيبة... ورسالة لا تتوقف (2024 – 2026) 70

نظرة إلى الأمام: مشاريع الرجاء 71

خاتمة 72

مقدّمة

محرّر الصفحات التالية هو الأب ميشال القدّيسة مريم (متينار). ويستعيد هذا المنشور، بتوسّع، مجمل النصوص التي ضربها على الآلة الكاتبة، ووقّعها بتاريخ 20 كانون الأوّل/ ديسمبر 1985، حين كان رئيس دير الآباء الكرمليّين في بغداد.

كان الأب ميشيل من إقليم أفينيون– أكيتين الذي قَدِمَ منه إلى لبنان، حيث أمضى سنتين في دراسة اللغة العربية، لينضمّ بعد ذلك، إلى إرساليّة بغداد في العام 1974، التي سيُضطرّ إلى مغادرتها لأسباب صحيّة، قُبَيْل وفاته سنة 2004. وتولّى في حياته في بغداد مهامّ الرئاسة، لدورات عدّة، وكان مولعاً بمعرفة تاريخ إرساليّة الكرمليّين في العراق. وقد أنجز أعمالا بحثيّة عدّة في هذا المجال، وبخاصّة في ما يتعلّق بحسم هويّة المرسلين الكرمليّين الى هذه المنطقة، ابتداءً من القرن السابع عشر.

والدراسة المنشورة هنا هي بمثابة تأريخ لهذه الإرسالية، ولحضور الرهبان الكرمليّين الحفاة، وعملهم في منطقة بلاد ما بين النهرين، بشكل عام، وفي العراق، بشكل خاصّ. ولم يكن المقصود القيام بدراسة بحثية متقصّية، بل وضع جدول زمني تسلسلّي موسّع، يرصد الوقائع والتواريخ والأمكنة والأشخاص والأحداث الرئيسة، فيمثّل دعوة إلى الاستزادة من المعرفة.

أُنجِزَت الدراسة، العام 1985 ، في خِضَّم الحرب الإيرانية – العراقية، ونعرف كلنا أنّ العراق، منذ تلك الحقبة، ما زال يشهد باستمرار، أوضاعاً مضطربة أدّت إلى هجرة مسيحيّة كثيفة. وفي مثل هذا السياق، ما زالت إرسالية بغداد باقية على قيد الحياة، حتى يومنا الحاضر. بفضل حضور كرمليّ واحد، عرفه الأب ميشيل معرفة وثيقة، هو الأب غدير. كان للإرسالية الكرملية في بغداد تاريخ مشهود، وكم نتمنّى أن يكون لها مستقبل مشهود أيضاً.

1- **الفكر الإرسالي عند القديسة تريزا والكرمليّين الأوائل**

كَتَبَت الأم الرئيسة : "حين تمّ تأسيس دير القديس يوسف في أفيلا، بلغتني أخبار الكوارث التي حَلّت بفرنسا... أعتقد أنني ما كنت لأتردّد في تقديم ألف نفس، من أجل إنقاذ نفس واحدة من النفوس التي كانت مهدّدة بالهلاك، بعدد وافر، في هذا البلد... وصمّمتُ، بالتالي، على فعل القليل الذي بمقدوري فعله، أي اتّباع المشورات الإنجيليّة بأكبر قدر ممكن من الكمال بالنسبة لي، وحثّ بعض النفوس الموجودة هنا على أن تحذو حذوي. ينكسر قلبي لمرأى هذا العدد المرتفع من النفوس تهلك... آه، يا أخواتي في يسوع المسيح، ساعِدْنَني على طلب هذه النعمة من الربّ. إنّه، لهذه الغاية، جَمَعَكُنَّ هنا، ففي هذا تكمن دعوتَكُنّ، وهنا جوهر قضاياكنّ، وفي هذا الاتجاه عليكنّ توجيه رغباتكنّ" *(طريق الكمال 1)*.

هذا النص من نصوص *الأم الرئيسة* معروف جيداً، ولكن، كان لا بدّ من استحضاره هنا، إذ إنّه يحدّد للدعوة التريزيانية، بصورة نهائية، هدفاً إرسالياً.

وبعد مرور حوالي الأربع سنوات على تأسيس دير القديس يوسف، كان للقدّيسة تريزا ليسوع الأفيلية لقاء مع راهب فرنسيسكاني عائد من الهند، حدّثها فيه " عن ملايين النفوس التي كانت تهلك في هذه المناطق، بسبب انعدام التعليم الدينيّ..." وتَروي تريزا: " كنت أقاسي بالغ الألم لمجرّد التفكير بهلاك هذا العدد الكثير من النفوس، ولا أقوى على تمالك نفسي... وفيما كنت في غمرة هذا الألم العميق المستولي عليّ... ظهر لي ربّنا، وقال لي مُعَزّياً، وهو يمدّني بدفق من الحبّ : انتظري قليلاً، يا ابنتي، وسترين أموراً عظيمة تحدث... بَقيتُ مغمورة بشعور التعزية، وبثقة كبيرة أن هذه الكلمات الواعدة ستتحقّق. غير أن وسيلة

تحقيقها لم تخطر ببالي قطّ. فمضى، في ما أظنّ، نصف سنةٍ أخرى على هذه الحال، جرى بعده ما سأرويه الآن..." *(التأسيسات 1)*

لكن ما سترويه تريزا بعد ذلك، هو بخصوص تأسيس أول دير للكرمليين الحفاة. إذن ثمّة علاقة بين ألم تريزا بسبب هلاك النفوس، والأمور العظيمة التي وعد بها الربّ، وبين الإصلاح الرهباني. ويخبرنا أحد معرّفي الأم القديسة، واسمه دييغو دي يبيس: " في مرحلة لاحقة، استطاعت تريزا، مستنيرة بنور سماوي، أن تدرك، بعمق لافت، الكلمات التي كان قد قالها لها ربّنا. وفهمت أنّ الكرمل المُصْلَح سيتحوّل بفضلها، إلى شجرة وارفة الظلال في الكنيسة، لن تغذّي ثمارها النفوس التأمليّة وحسب، بل ستغذّي أيضاً كبار الخطأة الذين يعيشون في حضن الكنيسة، وكذلك غير المؤمنين الذين ليسوا بعد تحت نير الإيمان العذب" *(حياة القديسة تريزا ليسوع، 2،13)*.

فَوَعْد الربّ لتريزا لا يتعلّق، تحديداً، بالإصلاح، وبرسالة الكرمليّين الحفاة، بل يُنبئ بخدمة خير النفوس، عبر التبشير والوعظ، وممن يشملهم هذا الخير يتراءى طيف غير المؤمنين الذين يتسبّب مصيرهم وخلاصهم بهذه الآلام بالنسبة إلى تريزا.

في 19 كانون الثاني 1582، تمّ إنجاز تأسيس دير لشبونة. وقد قام الملك فيليب الثاني الذي تولّى مقاليد الحكم في المقاطعات الإسبانية والبرتغالية، بطلب إرسال بعض الكرمليّين الحفاة، من أجل تبشير الكونغو. وقد لبّى الأب جيروم – غراسيان طلب إرسال مبشّرين إلى مقاطعات الهند الغربية، وإلى مملكة الكونغو، وصرّح بذلك قائلاً: " في كلّ ذلك، عملت بمشورة ودعم من الأم القدّيسة (تريزا)

(رحلات أنستازيو، 50). وهكذا تكون تريزا قبلت بأن ترى أبناءها يذهبون إلى بلدان الرسالة.

في 20 آذار 1582، انطلق الرهبان الخمسة الأوائل من لشبونة، غير أنّهم لاقوا حتفهم في عاصفة بحريّة. في المجمع الرهباني العام الملتئم في المودوفار (1583)، كانت الأغلبية مؤيّدة للإرساليات. وقد كان الأب العام غراسيان، بإلحاح من الملك، قد أرسل فريقاً ثانياً من الرهبان. ولكن زورقهم تعرّض لهجمات القراصنة، ما جعلهم متشرّدين على الشاطئ، ومرغمين على العودة إلى البرتغال. وهكذا جرى التخلّي عن فكرة الإرسالية إلى الكونغو، على ما يبدو. غير أنّ إلحاح الملك نجح في إرسال فريق ثالث، وصل إلى برّ الأمان، وبدأ العمل.

وكان الحدث الذي جاء يغيّر كلّ شيء: في أيار، العام 1585، خلف الأب نقولا دوريا الأب العام غراسيان. ما إن تولىّ مهام الرئاسة، حتّى حجب عن المرسلين إلى الكونغو كلّ مساعدة، ما حَكَم على هذه الإرسالية بالموت.

في العام 1597، في روما، ومع إنشاء جمعيّة إيطاليا على يد كليمنصوس الثامن، ستعرف الإرساليات التي خنقها الأب العام دوريا في المهد، مرحلة القيامة. شاءت العناية الإلهية أن يتلاقى ثلاثة رهبان: بيار أم الله المنتدب للرئاسة العامة، وبول يسوع بيار ومريم (ريفارولا)، رئيس دير نابولي وجان القديس إليزيه، وأن يتوافقوا على موقف جامع وواضح من مسألة الإرساليات.

لقد أوكل الرئيس العام إلى الأب جان ليسوع ومريم مهمّة كتابة بحث، للجواب عن السؤال: هل الإرساليات مطابقة لدستور الإصلاح التريزياني للكرمل،

نعم أو لا؟ فتوسّع الأب جان بالبرهانين الآتيين: نحن أبناء قدّيسة ذات روح رسوليّة بامتياز، ومن جهة أخرى، ما يتوافق مع فكرنا في أوروبا يجب أن يكون متوافقاً، بالقدر نفسه، مع ما هو قائم تحت سماوات أخرى، وخَلُصَ إلى كتابة ما يلي: "مِنَ الواضح أنّ الإرساليات متطابقة مع الهدف الأسمى لقوانيننا. إذاً لسنا ملزمين بتطبيقها وحسب، بل ليس من حقّنا أيضاً أن نؤجّل المبادرة إلى التنفيذ...".

وهكذا باتت المسألة محلولة بالنسبة إلى جمعيّة إيطاليا. ولكن لا بدّ لنا من ذكر راهب آخر. فالراهب جان ليسوع ومريم شدّد على مشروعيّة التأسيس في الشرق، كما في الغرب، على حدّ سواء. غير أن هذا يستلزم احترام التقيّد بالأنظمة المرعيّة الإجراء، وبأولويّة الحياة التأمليّة. أما الصيغة الأفعل لتصوّر الرسالة التبشيريّة الكرمليّة فقد وضع أنظمتها توماس ليسوع. " فالخلاصة" ستصبح بالنسبة إلى مجمع نشر الإيمان الذي طالب بإنشائه، الدليل الكلاسيكي المتعارف عليه للرسالة التبشيريّة. ويُعتَبَر توماس ليسوع، عن حقّ، رائد عمل الإرساليات وإنشاء مجمع نشر الإيمان. ولكن يجدر بنا ألاّ ننسى دور الأب جيروم غراسيان. فبعد طرده من الرهبانيّة، أسره القراصنة واحتجزوه في تونس. وبعد تحريره، جاء إلى روما، وكتب مذكّراته، والتمس من البابا بإلحاح، أن يُمسك بزمام قضيّة غير المؤمنين. غير أن جمعيّة أولى تأسّست، لم تُسفر عن نتيجة، وما لبثت أن حُلّت.

بعد ذلك عُهِدَ بقضية الإرساليات إلى بيار لأم الله، ومن ثمّ إلى دومينيك ليسوع ومريم. وعند مماته (16 شباط1635)، كان الكرمليّون الحفاة قد أسّسوا مراكز في الهند وبلاد فارس، وبلاد ما بين النهرين، وفي سوريا، وكانوا يعدّون العدّة لإعادة بناء جبل الكرمل.

2- أوائل الكرمليّين المرسلين إلى بلاد فارس والخليج

إنّ أوّل مجمع عام لجمعيّة إيطاليا أصدر نتائج التصويت لصالح الإرساليات. أطلع الأب الرئيس بيار لأمّ الله البابا على النتائج، مضيفاً أن الكرمليّين يرغبون في التوجّه إلى الأرض المقدّسة، لاستعادة جبل الكرمل. وكان البابا كليمنضوس الثامن يُمَنّي النفس بمشروع إدخال شاه الفرس في حلف ضدّ العثمانيين. وقد فكّر في نفسه أن الكرمليّين الحفاة باستطاعتهم أن يكونوا سفراء مميّزين، لدى البلاط في إصفهان، عاصمة بلاد فارس في تلك الحقبة.

وحثّهم على الرجوع عن قرارهم بالذهاب إلى فلسطين، مدعّماً رأيه بأن الفرنسيسكان موجودون هناك، وعبّر لهم عن رغبته في أن يرى الكرمليّين متوجّهين نحو بلاد فارس. في الحقيقة، لم يكن في بال رؤساء جمعيّة إيطاليا الذهاب إلى بلاد بعيدة كلّ هذا البعد، ولكنّهم رأوا في رغبة البابا نوعا من تجلٍّ للمشيئة الالهيّة، فشرعوا يبحثون عن المرسلين الأوائل الذين سيضطلعون بمهام السفراء أيضاً.

وقع الاختيار على بول ليسوع ومريم (ريفارولا) رئيس دير نابولي، وعلى جان للقديس إليزيه، الشغوف جدّاً بفكرة الإرساليات، منذ بدء حياته الرهبانيّة. وبناء على مبادرة من البابا، أضاف كلّ منهما إلى اسمه، اسماً تقليديّاً من أسماء رسل بلاد فارس، فصار اسم الأول بول سيمون، والثاني جان تدّاوس. ورافقهما إلى هناك فانسان مار فرنسيس، اسباني من فالنسيا، وجان للصعود، إيطالي من جيبيو. وقد غادر الفريق الصغير روما في 7 آب 1604. وعَبَر الرهبان مدن أنكون والبندقيّة وترانت وبراغ وكراكوفيا (25 آب 1604).

كان على الفريق الانتظار، سنة كاملة، في بولونيا، قبل التمكّن من متابعة الطريق عبر موسكوفيا. ستّ محاولات فشلت لأسباب مختلفة: من معارضة

السلطات الروسيّة، إلى وباء الطاعون، إلى رفض القيصر، إلى وفاة البابا لاوون الحادي عشر. وفي آخر أيار 1606، كانت وفاة القيصر بوريس باب العبور إلى تنفيذ المشروع. ابتداءً من شهر تشرين التاني 1605، كان الرهبان يدخلون روسيا من سمولانسك، ويمضون في موسكو الفترة من كانون الثاني حتى آذار 1606، ثمّ في جوكازان من 2 نيسان إلى 26 تموز. وأمّا سبب هذا التأخير فيعود إلى انتظار ذوبان جليد الأنهار. فكانوا يهبطون نهر الفولكا، ويصلون إلى كاريستين في 20 آب 1606، وكانت المنطقة الواقعة على مجرى الفولكا السفلي، من تزاريستين إلى أستراخان والمنتقلة حديثاً إلى سلطة قيصر موسكو، ما زالت تسلك مسارها نحو التهدئة وإحلال السلام، ما جعل رؤساء القافلة التي تغصّ بالمسافرين، ومن بينهم الكرمليّون، يرفضون المخاطرة فيها. فأمضوا، بالتالي، أحد عشر شهراً في تزاريستين، وفي خلال فترة الانتظار الطويلة هذه، وافت المنيّة الأخ جان للصعود، في آذار 1607. وتابع المرسلون طريقهم في 26 تموز 1607، فوصلوا إلى أستراخان. في مستهلّ أيلول أقلعوا، عبر بحر قزوين، إلى بلاد فارس. وبما أنّ الشاه كان موجوداً، ذلك الحين، في شمال مملكته، في أذربيجان، حظي الرهبان بالموافقة على إنزالهم على شاطئ هذه المقاطعة. غير أن القبطان بدّل رأيه في خلال الطريق، وأراد التوجّه نحو عمق الجنوب. وبعد جدل، عاد إلى الاتفاق، وأرسى السفينة على شاطئ دربنت، بحثاً عن الشاه. وسلكوا طريق البرّ ووصلوا، أخيراً، إلى إصفهان في 2 كانون الأول 1607، وبعد مضيّ ثلاث سنوات وأربعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً من السفر...

استقبل الشاه عبّاس الكبير، بحفاوة، المرسلين– سفراء كليمنضوس الثامن. ووهبهم بيتاً. ابتدأ فيه الكرمليّون الحياة النظاميّة، التي كانوا قد حافظوا عليها كاملة، طوال سفرتهم كلها. ونقرأ في حوليّات الكرمليين الحفاة في فرنسا (2، الفصل

13): " أسّس آباؤنا عند وصولهم إلى بلاد فارس، في إصفهان، عاصمة البلاد، مستشفى تَحَوّل إلى دير حقيقيّ نظامي: كانت تجري فيه الكل الفعاليات والأعمال الجماعيّة التي تُمارس في أديرتنا، فتُقرِع فيه الأجراس، وتُتلى ترانيم القدّاس الاحتفالي وغيره من الرُتَب المقدسة، بحسب التقاليد الرهبانية ومراسمها".

ولم تتأخر الاهتداءات، وأوّلها كان اهتداء السير روبيرت سيرلي، سفير إنكلترا، وزوجته ساميسونيا، الأميرة الشركسيّة، التي اتّخذت اسم تريزا. وكانت تجمعها صلة قرابة بالأسرة المالكة، بما أن أباها كان أخا الملكة... وقد فجّر اهتداؤها الاضطهاد، وحُكم على تريزا بالموت، ثمّ تمّ العفو عنها. وهي مدفونة في الدير، في روما، لاسكالا، غير بعيد من الأب توماس ليسوع.

وأرسل الرؤساء الدعم من روما إلى المرسلين، الفريق الأوّل غادر روما في تشرين الثاني 1608، عبر البحر الأبيض المتوسّط، فوصلوا إلى الإسكندرية، ثمّ إلى طرابلس، وحلب، وبغداد وإصفهان التي حلّوا فيها، في 11 حزيران 1609، بعد ثمانية أشهر من السفر.

أمّا الفريق الثاني فغادر روما في تموز 1610، عبر طريق مماثل تقريباً، فوصل إلى إصفهان في 21 أيار 1611، بعد أحد عشر شهراً من السفر.

ما النشاط الذي كان يقوم به هؤلاء الرهبان؟

كانوا يقدّمون الدعم لإيمان الكاثوليك الذين بقوا على إيمانهم في هذه المنطقة، والإحسان للمسيحيين من الطوائف الأخرى، ويهدون إلى الإيمان، بعض المسلمين، أحياناً. وكان نفوذهم في البلاط يسمح لهم بالوعظ، بقدر من الحريّة. وبحسب الذهنيّة السائدة في تلك الحقبة، كانوا يمنحون سرّ العماد لأطفال كثر من المنازعين أو المتروكين، ممهّدين بذلك لعمل الطفولة المقدّسة. والكساندر للقدّيس

سيلفستر، بفضل معلوماته الطبّية التي كانت تسهّل له القيام بهذا النوع من أعمال المحبّة، قد يكون عمّد، في خلال ثلاثة أعوام، 2918 طفلاً صغيراً.

وأُرسِل بول سيمون، مجدّداً، سفيراً للشاه، هذه المرة، إلى روما وإلى اسبانيا. وفيما بعد، صار أوّل رئيس دير في كراكوفيا (1614)، ومندوب الرهبان لتمثيلهم في المجمع العام، في مقاطعة جنوى (1617)، ورئيسا عاما مكلّفاً (1620،1632،1641). وتوفّى في دير لاسكالا، في 29 تموز 1643.

أما جان- تدّاوس فكان رئيس دير إصفهان في نيسان 1608، ثم قائماً بمهمّة سياسية في روسيا (1618-1621)، ونائب الرئيس الإقليمي (1618-1621)، ومؤسّس دير شيراز (1623)، ورئيس دير إصفهان لدورات عدّة.

وجاء إلى أوروبا، في نهاية العام 1628، للدفاع عن القضيّة الأرمنيّة، وانتُخِب اسقفاً على إصفهان (6 أيلول 1632)، وافته المنيّة بحادث في ليريدا، في 5 أيلول 1633. وترك لنا ترجمة للمزامير والأناجيل إلى الفارسيّة.

كان الشاه عبّاس رجلاً بمنتهى العنف. بقدر ما كان كريماً، حين كان يحظى المرء بعطفه، بالقدر عينه كان مصدر شرّ يُخشى، حين يكون ممتعضاً. فتَأَخُّر الأمراء المسيحيين عن مساندته، ضدّ العثمانيين، كان يثير فيه غضباً، يَصُبُّه على المُرسَلين، فيطردهم من أديرتهم ويُحَوّل الكنيسة إلى اسطبل. ومن ثمّ، يتراجع عن غضبه، ويَهَب الكرمليين بيتاً أجمل من السابق... لم يكن ممكناً الشعور بالأمان تحت سلطة هذا الأمير. وهذا ما دفع إلى التأسيس الثاني في بلاد فارس، في جزيرة هرمز، في المضيق حامل الاسم نفسه، وهي المستعمرة الثانية للبرتغاليين في المشرق، وهي حامية عسكريّة مهمّة وساحة تجاريّة. أسّس فانسان للقدّيس

فرنسيس هذا المقرّ في 1609. وكان يضمّ خمسمائة عائلة برتغالية، وبضع مئات من الهنود المعمّدين. وأُنشيء مركز للمبتدئين في هذا الدير الصغير، دام لسنوات قليلة. وحلّ الدمار بالإرساليّة في 1622، حين فقد البرتغاليّون السيطرة على هذه المدينة. والروح الرسوليّة عينها، في هرمز، دفعت الكرمليّين إلى التأسيس في شيراز، التي قصدها جان– تدّاوس في العام 1623، وفي البصرة، ببلاد ما بين النهرين، في عمق الخليج، وهي مرفأ هام بين غرب آسيا والهند. وكان البرتغاليّون يرسلون إليها، مرّتين في السنة، أسطولاً بحريّاً، مؤلّفاً من عشرين مركباً تجاريّاً. وكان المرسلون يهتمّون أيضاً بالمسيحيين الشرقيين. وكان لهم من التأثير ما جعل 700 من " مسيحيّي القديس يوحنا "، أتباع بدعة معمدانيّة يهودية – نصرانيّة، يهتدون إلى المسيحيّة.

وإلى الأديرة الأولى التي أسّسوها، يُضاف اثنان: أوّل في بندر كونغ سنة 1643، وثانٍ في بندر عبّاس سنة 1657، وهما مرفآن على الخليج: مقرّ همدان ومقرّ جيولفا، ضاحية أرمنيّة تابعة لإصفهان (1653)، جرى تأسيسه لمساعدة الأرمن الكاثوليك الموجودين في هذه المنطقة بكثرة.

إرساليّة بغداد حتّى العام 1773

تقع مدينة بغداد على نقطة جغرافيّة، حيث أعلى نسبة تقارب بين نهري دجلة والفرات، وهي وريثة عواصم شهيرة: بابل الكلدانيّين، وسلوقيا سلالة الاسكندر الكبير، وطيسفون البارتيّين والفرس. إنها ملتقى الطرقات بين بلاد فارس وسوريا، وبين أرمينيا وهضاب الأناضول، في الخليج. أما في العام 762، فهي تبرز بوصفها عاصمة للخلفاء العبّاسيّين.

وحين وجدت نفسها، ابتداء من القرن السادس عشر، مدينة على طريق المكتشفين والتجّار الغربيّين، كان على المرسلين، هم أيضاً، أن يمرّوا بها. في العام 1628، أسّس فيها الرهبان الفرنسيسكان إرساليّة، اضمحلّت واختفت سنة 1700.

عند إنشاء المقرّ الاسقفيّ لإصفهان، الذي يعود إنشاؤه إلى الأب جان–تدّاوس في 1632، رأى مجمع نشر الإيمان من المفيد تعيين أسقف مساعد له، يتمتّع بحق التعاقب، ويكون كرملّيّا أيضا، فكان تيموتيه بيريز هو المختار لهذه المهمّة. وَوُلّي على كرسي بغداد. وفي غضون ذلك، قدّمت سيّدة فرنسيّة نبيلة إلى الكرسي الرسوليّ مبلغ 120,000 ليرة، تكون فوائده مخصّصة لصالح أبرشيّة في المشرق. وكان الكرسي المختار كرسي بغداد بالتحديد. وكان لها، فضلاً عن ذلك، الحظوة في أن يكون أوّل المثبّتين على هذا الكرسي، مُعَرِّف السيّدة الفرنسية، الأب برنار للقدّيسة تريزا (ديفال). ركب برنار ديفال الباخرة من مرسيليا، في 19 نيسان، بعد سيامته الأسقفية في روما، في 22 آب، ووصل إلى إصفهان في 7 تموز 1640. ولكن لم يكن باستطاعته، لأسباب سياسيّة، ويا للأسف، أن يستقرّ في المدينة التي عُيّن أسقفاً لها. وعمل على تنظيم مقرّ إقامته، والكاتدرائية في إصفهان، وبعد ذلك توجّه إلى باريس، حيث عزم على تأسيس إكليريكيّة للإرساليات. وفي الطريق إلى هناك، كانت له محطّة في بغداد. وهذا ما كتبه: "أنعم الله عليّ أن أتولّى مهام أبرشيتي المسكينة، في جوّ من الشعور بالفرح الغامر، من قبل أبناء الأبرشيّة كلّهم، الذين ناولتهم القربان المقدّس، بناء على التماسهم، وطلبهم المشفوع بالدموع، على الرغم من أنهم قبل أسبوعين، كانوا قد تناولوا القربان المقدّس، في يوم الفصح المجيد. مَكَثْتُ هناك عشرة أيام، في خلالها أنعم الله عليّ بتثبيتهم في الإيمان الكاثوليكي، بدون أن أترك أحداً منهم، إلاّ وزرته بالرب إلهنا.

وكان لي في ذلك دفق من الحنان، أفاضه الله عليهم نحوي. وكان قد مرّ على بابل 900 سنة، من غير أن يتمكّن أسقفها من الدخول إليها. وهكذا عندما دقّت ساعة الفراق، لم أدرِ كيف لم نسقط أمواتاً جميعنا. وأنا على يقين أن ذلك كان ليحدث، لولا ما كان في قلوبنا من الرجاء، بأننا سنعود لنتلاقى يوماً، في أسرع ما يمكن. فلينعم الله عليّ بهذه النعمة".

إلاّ أن هذه الرغبة لم تكن لتتحقّق. فعند عودته إلى باريس، استقرّ في شارع باك، بغية إنشاء الإكليريكيّة التي فكّر فيها. وقد وقف كل ما يملكه، من أجل تحقيق هذا الإنجاز، ومات في 10 نيسان 1669.

ستّة أساقفة، بعده، نُصّبوا على كرسي بابل، ولكن لم يسكن أيّ واحد منهم في بغداد. وفي سنة 1718، كان المرشّح للمنصب الخوراسقف فارليه، من الإرساليّات الخارجيّة في باريس. ولكن هذا المرشّح ذهب بعيداً في التأثّر بمذهب الجنسينيّة، فحُرم من ولايته. وفي البحث عن بديل له، لمتابعة عمل التبشير بالإنجيل الذي بدأه الكبّوشيون، من العام 1628 حتى العام 1700، اقترح مجمع نشر الإيمان الكرملي جوزف– ماري ليسوع، وكان في حينها زائراً على إرساليّات سوريا، وبلاد فارس، والهند.

بادر البابا إنوسنت الثالث عشر إلى تسميته نائباً أسقفيّاً بابوياً لبابل، في 14 حزيران 1721. وكان الخيار جيّداً: لقد كان الأب جوزف– ماري موجوداً في بلاد فارس منذ العام 1708، وكان قد علّم اللغة العربيّة في إكليريكيّة بانكراس، وكان قد رجع إلى الشرق، منذ العام 1720. وقصد، للحال، مركز خدمته الأسقفيّة، بدون أن يكون له مقرّ إقامة ثابت ولا كنيسة حتى، لاضطراره إلى الهرب مراراً، واللجوء إلى المرسلين في حلب، وفي همدان أو في البصرة، من حيث جاء. وفي

العام 1728، استقال من مهمّة نائب رسولي (وكان له من العمر 62 سنة)، وخلفه الكرملّي برنار– ماري ليسوع (بومونتي)، الذي أُعفي من الإقامة في المطرانية، على الرغم من قبضه مداخيلها. وهكذا عُيّن عمانوئيل القديس البير مدّبراً رسولياً، وكان كرمليّاً من مقاطعة بورغونيه، وُلد في 1702.

وعند الوصول إلى بغداد، لم يجد عمانوئيل أحداً: كان الأب جوزف– ماري قد اضطرّ، مرّة أخرى، إلى اللجوء إلى حلب، فطلب منه العودة، ليتعلّم منه مبادئ العمل الإرسالي، وعاد الأب المخضرم، متّتبعاً ضفاف دجلة، لملاقاة ابن بلده الشاب. وأوّل ما كان عليه القيام به، كان طلب إذن من الحاكم للإقامة في بغداد. وقصد عمانوئيل ولّيّ عهد مملكة الهند المقيم في بونديشيري، للدفاع عن قضيّته، وإعطاء البرهان على الفائدة من الحفاظ على إرسالية بغداد، والحصول على دعم مالي، ورسالة توصية وهدايا إلى الحاكم.

في تموز 1731، تمّت تسوية الأوضاع كلّها، وصار بإمكان الكرمليّين أن يؤسّسوا إرساليتهم بصورة ثابتة. فأعادوا ترميم البيت المتواضع، وحوّلوه إلى كنيسة صغيرة (كانت فيما مضى حظيرة قديمة)، وتمكّن المرسلون من ممارسة الأسرار في العلن، والتبشير بكلمة الله. وفي عام 1734، غادر جوزف– ماري الإرسالية، لأنّ قواه باتت خائرة تقريباً. وعلى الرغم من ذلك جرى انتخابه رئيساً عاماً لإقليم بورغونيه في العام 1737، ولكنه ما لبث أن فارق الحياة في العام عينه. وجد عمّانوئيل نفسه وحيداً. فكان اهتمامه الأوّل البحث عن رفاق. فجاؤوا إليه: من روما ليأندر القديسة سيسيل من إقليم بيامون، وفيديل للقديسة تريزا من لومبارديا. وبفضل المبالغ المالية التي جمعوها، تمّ بناء كنيسة أوسع، بدلاً من الكنيسة الصغيرة البدائيّة، وبعد هذا الإنجاز، فتح عمانوئيل مدرسة، في العام

1737: إنّها مدرسة القدّيس يوسف، جدّة أو أولى كلّ المؤسّسات التعليميّة في العراق.

وبعد مدّة وجيزة، جرى توسيع مقرّ إقامة المُرسلين، ليحتضن جماعةً صغيرة (6 رهبان في العام 1743). وكما يمكن توقّعه، كثرت الاضطهادات، وكان بعضها من قبل بعض المسيحيين، بدافع الحسد، وبعضها الآخر من قبل الحاكم: كنيسة مختومة بالشمع الأحمر، سجن، غرامات... لم يكن عمّانوئيل من النوع الذي ينتظر، ساكتاً، تكرار مثل هذه الإجراءات الظالمة. فرفع الأمر إلى سفير بلاده إلى الباب العالي، ونقل إليه كلّ ما كان يجري، وتلقّى، من الملك لويس الخامس عشر، قرار تعيينه قنصلاً لفرنسا، (في البصرة، كان الرؤساء الكرمليّيون هم قناصل فرنسا، في هذه المدينة من 1679 إلى 1738). وطوال 45 عاماً، عمل الأب عمّانوئيل، بدون حساب، على إنماء العمل الرسولي الذي ابتدأ متواضعاً. وفيما بعد، صار أسقفاً لبغداد في 1743. وسّع الكنيسة والمدرسة ومقرّ الإقامة، واستطاعت الإرساليّة في ظلّ إدارته، أن تتجاوز المرحلة الصعبة. وستحظى فترة الازدهار هذه، بتتويج يليق بها.

منذ بدء العام 1773، اجتاح الطاعون شمال بلاد ما بين النهرين، واتّجه نزولاً نحو بغداد. وقد عاهد الكرمليّيون النفس على ألاّ يموت شخص واحد، بدون أن يتزوّد بالأسرار المقدّسة.

مات الآباء آنج للقدّيسة حنّة وكلود للقدّيس يوسف، في 27 آذار 1773، وعمّانوئيل للقدّيس ألبير وكونستان للقدّيسة ياسانت، في 4 نيسان.

وقد بلغت أخبار وفاة الرباعي إلى الكرمليّين في البصرة. فلم يكونوا أقلّ بطولة: إيلدوفونس للقدّيسة حنّة توفّى في 23 نيسان، وفيديل للقدّيسة تريزا، وإيلي للقدّيس يواكيم ماتا في 28 نيسان.

ولا يسعنا إلاّ أن نتأثّر بالغ التأثّر، لدى قراءة هذه الأسطر، في حوليّات الإرساليّة: " لقد أمّن هؤلاء الآباء جميعهم رسالتهم الرسوليّة، حتّى الرمق الأخير، عبر توزيع الأسرار على المصابين بوباء الطاعون، إلى أن حصدهم الموت هم أيضاً... وهكذا فقدت إرساليتنا، في بغداد والبصرة، مُرسليها كلّهم".

زمن المِحَنْ

في نيسان 1773، قُضي على إرساليّة بلاد ما بين النهرين قضاءً تامّاً: خَسِر مَقَرّا بغداد والبصرة كلّ مُرسليهما الذين ماتوا، ضحايا تفانيهم نحو المصابين بالطاعون. وجاء ذلك، في عرف الإيمان، تتويجاً لمرحلة مجيدة. ولا بدّ لنا الآن، ويا للأسف، من سرد أخبار أحداث أقلّ مدعاة للعزاء، وللإدهاش أيضا، بانتظار مرحلة إعادة البناء، في منتصف القرن التاسع عشر.

وفي هذه الحقبة التي تعنينا، كانت الإرساليّات البعيدة تدفع ضريبة انحدار الروح الدينيّ في أوروبا، وتدنّي الالتحاق بالأديار.

غير أنّ إرساليّة بغداد لم تبقَ طويلا، من دون رهبان. فالأب هنري للقدّيس شارل، المرسل إلى مردين، نجده هناك، منذ شهر آب1773، ولا يتأخّر آخرون عن ملاقاته سريعاً، الى هناك. وينطبق ذلك على البصرة أيضاً.

وفي بلاد فارس، على العكس، كانت الخسارة كاملة: هجر الرهبان شيراز، منذ 1738، وهمدان في 1754، وإصفهان في 1763، منذ وفاة آخر راهب.

في 1776، سُمّي أسقفٌ خَلَفاً للأب عمّانوئيل. وجاء راهب سيسترِشي، اسمه جان–باتيست ميرودو دي بورج، إلى حلب، ولكنّه أُصيب بمرض، فعاد أدراجه، ومكث في باريس. وقد أرسل إلى بغداد، ابن أخيه نائباً عاماً. ولم يلتحق بمركز عمله، إلاّ في 1784. وتمّ تعليق مهام ميرودو في 1791، بسبب تصويته لصالح الدستور العلماني لرجال الدين.

وقد عيّنت روما نائباً عاماً رسوليّاً، خلفاً له، لا يحمل الرتبة الأسقفيّة، وتمّ اختيار الأب فيلجانس للقدّيسة ماري، من مقاطعة كولونيا، وهو مُرسل في البصرة، منذ 1775، ورئيس الإرساليّة. ويتبيّن من مراسلاته، أنّه اضطرّ إلى اتخاذ موقف متشدّد ضدّ التجاوزات. وفي تلك الحقبة، بدا واضحاً انحسار التطلب في اختيار المرسلين، وقبول إرسال "من يمكن إرساله"، بدون التزام القاعدة الأساسيّة المعهودة، أي ضرورة اختيار أُناس لهذه البلاد، يتحرّكون بدافع الروح الرهباني بشكل مضاعف. وسرعان ما أحسّ الجميع بانعكاسات الضعف الذي أصاب اختيار المرسَلين. ونجد في حوليّات إرساليّة البصرة التي لا تَذكُر، عادةً، سوى الفضائل والنشاطات الرسوليّة المميّزة لدى المرسلين، صَدَىً بارزاً لوضع يتقهقر، بصورة بائسة. وفي هذا السياق، أُرسِل الى البصرة، في 1777، الأب جوستان للقلب الأقدس، من مقاطعة لومبارديا، معاون الرئيس العام، بأمر من الأب العام " لوضع حدّ للمغالطات الحاصلة في بابل، وإخماد الخصومات، وإزالة الشكوك". ولم تلقَ جهوده أيّ نجاح، لا بل ضاعفت حدّة الخلافات والشكوك. ويختم كاتب السيرة كلامه قائلا: "ولكن فلندع ذلك، إذ إنّ الله، على ما يبدو، هجر بابل وتركها لفضائحها وفظائعها".

وكان الوضع يسير نحو مزيد من التدهور. فمن بين 36 راهبا، قدموا الى بلاد ما بين النهرين، من 1773 الى 1809، 15 أقاموا فيها، أكثر من خمس سنوات. وعند وفاة الأب فولجانس، في 1803، بعد 28 سنة من الرسالة، صار النائب الرسولي ولفغانغ للقدّيس يوسف من مقاطعة بافاريا، المرسل الى الهند، والذي كان معروفا بغرابة أطواره، وطبعه الحادّ. فجرى استبداله، بعد مرور 3 سنوات. وبدأ النوّاب الرسوليّون يتعاقبون، بوتيرة سريعة، بمعدّل 4 في 15 سنة.

قبل الدخول في تفسير أسباب هذه التبديلات السريعة، والخارجة عن المألوف، لا بدّ من ذكر هؤلاء الرهبان.

سَمَّت رسالة بابويّة لهذا المنصب، في 1807، بليز للقدّيس ماتيو، من مقاطعة نابولي. كان مُرسلا في بلاد ما بين النهرين، وفي حلب، منذ 23 سنة. كان رجلاً مثالياً وكثير التواضع. ولكنه أُقيل في 1813. وخلفه فانسان للحبل بلا دنس، الناذر نذوره في لومبارديا في الإرساليات، منذ عشر سنوات. وعلى غرار سلفه، لم يبقَ في منصبه، سوى 3 سنوات.

في كانون الثاني، في أرشيف مجمع نشر الإيمان، نجد هذه العبارة المشؤومة، تتكرّر للمرة الرابعة: "بسبب شكاوى عديدة وخطيرة، وصلت إلى المجمع المقدّس، ضد الأب فانسان للحبل بلا دنس، من الكرمليّين الحفاة، والنائب الرسولي لبابل، ولأسباب أخرى، بدا من المناسب إقالته من المنصب". وقد خلفه الأب سيجيسموند للقدّيس شارل، ومارَس وظيفته حتى 1822، تاريخ وفاته.

وقد حان الوقت لذكر أسباب التبديلات المتتالية، والخارجة عن المألوف. كان للكرمليّين في بغداد أعداء، في بعض البيئات المسلمة، ولكن من بين الكهنة غير الكاثوليك أيضاً، وللأسف من بعض الكهنة التابعين لسائر الطوائف

الكاثوليكية من كلدان وسريان وأرمن. وسابقاً، في زمن الخوراسقف بايّيه، كان عليهم تحمّل الاضطهادات، ولكنّ ما كان يحمي الرهبان من ذلك، هو ما كانوا يتّصفون به من روح طيّبة، وحماسة رسوليّة، وأفعال الخير التي كانوا يقومون بها. وشكّل انحطاط الحياة الرهبانيّة سلاحاً سهل الاستخدام، في أيدي من كانوا ينتظرون الفرصة السانحة لدسائسهم. وجرت حملة اضطهاد عام، ضد الكرمليّين والنوّاب الرسوليّين، حَمَلَ لواءها، بصورة خاصّة، كاهن من الأرمن الكاثوليك، كان طالبا دارسا في البروباغندا في روما، حيث بنى لنفسه علاقات نفوذ وتأثير، تساعده على الرفع من شأن آرائه، على حساب أصحاب الآراء المعاكسة. وهكذا أصبح لجان أريتيوم من القدرة والنفوذ ما يوظّفه لإسقاط المعاونين الرسوليّين المتعاقبين. يمكن التذمّر، إلى حدٍّ ما، من شخصية غريبة الأطوار مثل وُلفغانغ: أما الآخرون فكانوا ضحايا لمكائد دنيئة، وافتراءات مثبتة. وفي نهاية المطاف، توصّل جان أريتيوم لأن يصبح أسقفاً أرمنياً لإصفهان، مع إقامة في بغداد. هل كان عنده مشروع للتخلّص من هؤلاء المُرسلين، لأنهم كانوا يهتمون بالمسيحيين من كل الطوائف، وبدون أي تمييز بينهم؟!

وكتب الأب سيجيموند إلى الرئيس العام قائلاً: "كن على ثقةٍ، يا أبانا، أنه ما دام هناك على قيد الحياة المُسمّى جان أريتيوم، فلن يكون مُرسلونا القادمون إلى هنا في أمان وسلام". وفي الواقع، مات جان، بعد فترة قليلة من الوقت، فتوقّفت الاضطهادات فوراً. ولكن، بسبب عدم وجود كرمليين، اختارت روما كاهناً علمانياً فرنسياً، هو بيار كوبيري. بعد تعيينه في العام 1820، تمّت رسامته في باريس، وصار أسقف بابل مع وفاة الخورأسقف ميرودو، في 1822–1823، وبقي الأب فانسان، منذ ذلك الحين وحيداً، فغادر بغداد في شباط 1825، وتوجّه إلى سوريا. ولم يعد من هناك إلاّ في 1839.

لقد فتح المطران كوبيري مدرستين، واستورد كتباً دينية باللغة العربية من لبنان، وصبّ جهوده على تحقيق المصالحة بين المسيحيين المنقسمين. وأنشأ جمعية دينية، لم يُكتَب لها البقاء. وعلى مثال المطران بايّيه، كان عليه أن يدفع حياته ثمناً لتعلّقه الكبير بمدينته الأسقفيّة: لقد اجتاح الطاعون البلاد، مجدّداً، فمات الأسقف في 26 نيسان 1831.

وخَلَفَه أمينُ سِرّه، بصفة نائب رسولي في 1832، ثم بصفة أسقف في 1837 ورئيس أساقفة في 1856. ولكن، كان عليه مغادرة المدينة في السنة عينها، بناء على أوامر من الحكومة الفرنسيّة، وكان ذلك، بدون شك، بسبب تصريحه بآراء ومواقف ضد البونابارتيين. وعاد العمل بنظام النوّاب الرسوليّين حتى وفاته عام 1887.

وكان للكَرْمَليين عودة في 1839: فانسان للحبل بلا دنس كان أول العائدين، ولحق به فريق صغير من أربعة رهبان، وصلوا في تموز 1840. والمُرسل إلى إصفهان توفّى في بغداد في شهر آب.ولكنّ إرساليتي بغداد والبصرة أُتيحت إعادة فتحهما. ووصل أيضاً أربعة رهبان آحرون، ولكنّ مُعظمهم لم يمكثوا سوى بعض الوقت. فضلاً عن ذلك، مات الأب ألفونس لقلب مريم، من توسكانا، وذلك بسبب وباء الكوليرا، في تشرين الأول 1846، ومات دُني للقديس مارتان من لومبارديا، مسموماً على يد خادمه، الذي اختلس ما تمّ توفيره وجمعه من المال من أجل ترميم الكنيسة، وهكذا عادت الإرسالية مُقفرة، وكان ذلك في يوم عيد التجلّي، 6 آب 1855.

وشهدت مقاطعات أوروبا قدراً بالغاً من البؤس، دفع إلى مناشدة روما تخلّي الكرمليين عن هذه الإرسالية. وبانتظار الجواب المتوقّع أن يكون إيجابياً،

بدون أدنى شك، والذي كان على مقاطعة أكيتين المرمّمة حديثاً، إعطاؤه، بإرسال مُرسَلَيْن إثنيْن. وسيكون لهما الفضل في افتتاح حقبة جديدة لكنيسة بلاد ما بين النهرين.

استعادة النهوض في بلاد ما بين النهرين في القرن التاسع عشر

بعد أن غاب الكرمليّون الحفاة عن ساحة فرنسا، منذ ثورة 1789، عادوا إلى الوجود، ووضع الأمور في نصابها، في 1839 في بوردو، على يدّ الأب دومينيك للقديس يوسف، وبعض الرهبان المطرودين من اسبانيا. وبعد مرور 15 سنة، كانت مقاطعة أكيتين قد استعادت نهوضها (1855)، ومقاطعة أفينيون استعادته في 1867. وفي ذلك الحين، كان عدد الأديرة التي تأسّست قد بلغ 15 ديراً، وعدد الرهبان 222 راهباً.

وهكذا استطاع إقليم أكيتين إعطاء وعد بإرسال مُرْسَلَين إثنيْن، غادرا في غضون العام 1857، ووصلا إلى بغداد في 6 كانون الثاني 1858. هذان الراهبان: فرانسوا– كزافييه للقدّيسة مريم، وعمره 52 سنة، وماري– جوزف ليسوع، 28 سنة، وجدا هناك في بغداد الأب إيليزيه لأُمّ الله الذي عاد من لبنان، وكان بانتظار المُرسَلَين الجديدَيْن، وبعد أن عَرّفهما بالإرساليّة، وبما فيها من الأعمال، غادر في نيسان 1858. فتسلّم الأب كزافيه إدارة الرعيّة، والأب ماري– جوزف المدرسة. وفي الحقيقة، بالنسبة إلى الكنيسة، لم يكن عندهما سوى قاعة وسيعة تحت الأرض، أو نوع من القبو التقليدي يسمّى في العراق السرداب. في العام 1863، اضطرّ كزافيه لمغادرة بغداد، تاركاً رفيقه وحيداً، مع جماعة صغيرة تضمّ 2000 مؤمن.

ولمّا طالب بمساعدين له، كان الجواب أن عليه أن يأتي، ليبحث بنفسه عن أعوان، وهذا ما فعله. وبعد رحلة طريفة، وصل الى فرنسا، وافتتح سلسلة مواعظ، من أجل جمع المساعدات اللازمة لبناء كنيسة جديدة. وفي دير مدينة ليون، وجد ضالّته المنشودة في شخص الأب دميان– جوزف للقدّيسة حنّة، الطبيب المتخرّج من كلّية باريس، وعمره آنذاك 36 سنة. وسيكون عليهما العمل معا، لمدّة تزيد على 30 سنة.

ما إن عاد الأب ماري– جوزف الى بغداد، حتّى بادر الى بناء الكنيسة. جرى وضع حجر الأساس في 20 أيار 1866، يوم أحد العنصرة، بحضور قنصل فرنسا وكبار شخصيات المدينة. وبما أن الأرض لم تكن ثابتة، كان لا بدّ من الحفر أعمق لإرساء الأساسات، ما أخّر موعد التدشين الى زمن المجيء الممهّد للميلاد، سنة 1871. أمّا النتائج التي تحقّقت فكانت رائعة، وهذه الكنيسة ما زالت صامدة في وسط مدينة بغداد القديمة، بمقابل مئذنة جامع الخلفاء. في هذا العام نفسه1871، عُيّن الأب ماري – جوزف نائبا رسوليّا لبلاد ما بين النهرين السفلى، وتمّ دعمه براهبَين شابّين من فرنسا. كان عدد طلاب المدرسة يقتصر على 42 تلميذاً، ولكن جهود التقدّم المستمرة رفعت العدد إلى 225 تلميذاً، في أواخر القرن. كان أساتذة مدرسة القدّيس يوسف من الرهبان الكرمليّين والمريميّين والعلمانيّين. وأضيف إلى المدرسة قسم داخلي، ونشاط اجتماعي مع الأولاد، وندوة دراسيّة، وجرى إنشاء رابطة لقدامى طلاّب المدرسة، تُصدِر مجلّة شهريّة. وقد أسس قدامى هذه المدرسة، في بغداد، مسارات حقيقيّة للمِهَن الحرّة كالطبّ، والمحاماة، والصيدلة، وكُتّاب العدل، وشغلوا أرفع المناصب في الإدارات والمصارف والتجارة،

وأحد هؤلاء القدامى صار راهباً كرملياً في 1889، وهو أنستاز– ماري القديس الياس، وأسّس مجلة أدبية باللغة العربية، كانت من الأوائل من نوعها في العراق.

أما الأب دميان، فقد أسّس مستوصفاً للفقراء، وهو الأول من نوعه، بلا شكّ. وكانت وفاته في تشرين الأول 1896، ولحق به الأب ماري– جوزف في آب 1898، بعد فترة قليلة من الاحتفال بيوبيله الأربعين في حقل الرسالة. وفي ذلك الحين، كان الفريق الصغير يضمّ خمسة مرسَلين، الأمر الذي لم يحدث قبل، منذ 1813.

واستكمالاً لهذه النشاطات كلّها، كان على المرسلين أن يستقبلوا، في 1880، راهبات التقدمة من تور (فرنسا)، اللواتي فتحنَ مدرستين للبنات، ومأوى في بغداد، ومثل هذه الإنجازات في البصرة أيضاً.

وحين أصبح التعليم في المدرسة مدفوعاً، جرى تدشين مدرسة مجّانيّة للفقراء، في العام 1890، وسرعان ما بلغ عدد طلابها 150 تلميذاً. أما الهدف المزدوج الذي كان يجري السعيُ إليه، فهو توفير تعليم أساسي (قراءة وكتابة باللغة العربية، وحساب وغير ذلك)، ومن جهة أخرى حماية هؤلاء الأولاد الفقراء من البطالة، والتشرّد، والاستغلال، حال بلوغهم سنّ العمل، لكسب بعض المال. كان هؤلاء الأولاد يحصلون على ملابس، وبعض وجبات الطعام، وباختصار كل ما يسمح بالاستقرار، مرحلياً، لكائنات نامية متقلبة المزاج. بعد ذلك وبسرعة، أُضيفَ إلى هذا التعليم الأساسي، التعليم الديني. وهكذا نشأ العمل على التعليم المسيحي المسائي. وحرصت الإرسالية على منح التلاميذ الموهوبين، بعد الانتهاء من التعليم الأساسي، فرصة تعلّم مهنة على يد حِرَفي مختصّ. وفي هذه المرحلة، كانوا يحصلون على المساعدات اللازمة، وبعد ذلك، يجري تكليفهم بتدريب رفاقهم

الأصغر سنّاً منهم، على مهارات تجليد الكتب والحفر على النحاس، والحدادة والتعدين، والخياطة والسكافة والنجارة، وغيرها من المهن المتنوعة. ونتج عن هذا العمل في التدريب والتعليم، إنشاء ميْتم في 1900، والصلة واضحة بين المجالين. وجرى فتح مشغل للحدادة، ومشغل للنجارة، واستثمار زراعيّ.

وكان مهندس كل هذه المبادرات الأب بيير– ماري للقلب الأقدس. كان قد وصل إلى بلاد ما بين النهرين في 1897، وله من العمر 32 سنة، ومات في تموز، وعمره 97 عاماً. ويحفظ أهالي حي الميتم، حيث كان يُقيم، اسم "باتري بيير"، ويتحدّث بعضهم عنه وكأنه مات البارحة. وبسرعة قصوى، صار هذا العمل الذي كان يديره بإبداعيّة وتفانٍ، الأكثر شهرةً وشعبيةً في المدينة. ويتبيّن من تصفّح أرشيف الميتم، حجم الهبات التي كان يُغدقها عليه كلّ الأشراف في المدينة: الحاكم الذي كان يرفع من مستوى احتفالاته الرسمية بإشراك جوقة الميتم فيها، والقناصل ومديرو شركات التجارة، والمصرفيون وحشدٌ من المحسنين غيرهم.

لقد بَرَع أيتام الأب بيير في عمل الكثير من الأشياء؟ فالنجّارون احترفوا صنع النعوش، وأنشأوا لها مؤسّسة لخدمة دفن الموتى. أما قمّة هذه الأعمال فكانت، بلا شكّ، كنيستهم، وهي الكنيسة اللاتينيّة الثانية في بغداد، يتجاور صليبها مع المآذن، ما تسبّب للأب بيير بنزاعات ملحمية مع السلطات الرسمية. ولكن ما اكتسبه العمل من الوهج، جعل أيّ تهجّم عليه مداناً، على الصعيد الشعبي، أياً كان الدافع إليه. وكنيسة القديسة تريزا الطفل يسوع هي الآن كنيسة البطريركية الكلدانية الكاثوليكية لبغداد.

ويرتبط اسم الأب بيير بعمل آخر أيضاً، هو العمل مع المكفوفين، وكان يقول إنه أغلى على قلبه من حدقة عينه. ولم يكن في الأمبراطورية العثمانية كلّها

سوى مدرستين للمكفوفين. وفي بغداد، تبلغ نسبة المكفوفين 1%، وهي نسبة مرتفعة جداً. وقد انكبَ المرسلون على العمل، فكيّفوا طريقة برايل مع تعليمهم، وأصبح خرّيجو مدرستهم غزّالين وندّافين وحائكين، وفي الوقت عينه، كانوا يدهشون مواطنيهم بمستوى تأهيلهم، ولو كان ابتدائياً، فهم قادرون على القراءة والكتابة، على الرغم من أنهم مكفوفون.

ولا بدّ من ذكر تنظيمات أخرى، لم تعد موجودة اليوم. فعلى الصعيد الروحي: بعض الأخويات (سيدة الكرمل، يسوع طفل براغ، والرهبنة الثالثة للكرمل). أمّا على الصعيد الأدبي والعلمي، فكان الأب أنستاز – ماري يجمع، بصبرٍ جميل، مئات الكتب والمخطوطات النفيسة، وهي موضوعة اليوم، في متحف بغداد.

على مُنعطف القرن، كانت الإرساليّة بإدارة الأب بيير لأم الله (من بريزويلا)، وهو اسباني من مقاطعة أكيتين. بدفعٍ منه، جرت إعادة إطلاق إرسالية البصرة، بعد هجرٍ دام 55 سنة. وكان لها مُرسلٌ بمركز ثابت. ومن ثمّ، في 1900، أعاد الكرمليّون تمركزهم في بلاد فارس التي غادروها في 1763. في العام 1904، جرى افتتاح مقرّ إقامة ثالث في العراق، في العمارة، من أجل بناء ميتم ومدرستين وكنيسة، مع وجود مُرسل مقيم.

في 1912، افتتحت الإرساليّة مقرّ إقامة ثانياً، في بلاد فارس. وفي تلك السنة كانت إرسالية بلاد ما بين النهرين تضمّ مقرّات الإقامة الآتية: البصرة، بغداد والعمارة في العراق، وبوشير ومُحَمّرة في بلاد فارس، ما يجعل مجموع عدد المرسلين الكرمليّين 17 كرمليّاً في 1913.

كان على رأس الإرسالية رئيس عام، إرساليّة من نوعها الخاص، منذ 1896، وكان نائباً للرئيس الإقليمي. ويبدو أنّ الإرسالية أُعطيَت مرتبة نصف إقليم، لمدة سنتين أو ثلاث. وكان رئيس الأساقفة لهذه المرحلة كرمليّاً أيضاً، وهو الأب جان للعائلة المقدسة، وقد توفّى في عام 1917. إنّ فترة التوسّع هذه، ستجد نفسها موقوفة بفجاجة، في كانون الأول 1917.

وكان من نتائج الحرب الكبرى أن الحكم العثماني أصدر أمراً بطرد كل المرسَلين الأوروبيين. في الأول من كانون الأول 1914، كان تسعة مرسلين يغادرون العراق، مع راهبات التقدمة، ويعودون إلى فرنسا. أما الأب أنستاز – ماري فكان مسجوناً، بسبب أفكاره القوميّة العربيّة. وحدهم المرسلون، ذوو المركز الثابت في بلاد فارس، والرهبان من أصل عربي، أو من بلدان حليفة للعثمانيين، استطاعوا البقاء.

غير أنّ الحرب في بلاد ما بين النهرين كانت تتفاقم بسرعة، ومنذ أيلول 1915، 7 مرسلين رسوا في البصرة التي كان الإنكليز قد استولوا عليها، وكانوا يترقبّون الظرف الملائم للرجوع إلى بغداد.

إرساليّة بلاد ما بين النهرين في مرحلة ما بين الحربين

لم تَسْلَم إرسالية بلاد ما بين النهرين من الحرب التي اندلعت، في آب 1914. وهذا ما تقوله حوليات إرسالية بغداد: "في 5 شباط 1918، يكون قد مرّ ما يقارب أربع سنوات على السطور السابقة التي خطّها الأب لويس (مؤرّخة بدءاً من 11 حزيران 1914)، 4 سنوات مليئة بأحداث، لا نشهد مثلها، إلاّ في أزمنة الاضطرابات والحرب فقط. فلنلخّص هذه الأحداث...

آب1914– الحرب اندلعت. شملت التعبئة العامّة الآباء لويس وماري–برنار ولوسيان وبيير. دخلوا كلّهم الى القوافل السيارة أو الى المستشفيات. في تشرين الأوّل، الأب ليون ميشال، العائد من البصرة، فتح المدرسة. ولكن، في نهاية تشرين الأوّل، ها هي الحرب تندلع بين تركيا والحلفاء.

في 13 تشرين الثاني، استولى الإنكليز على البصرة، وتقرّر إبعاد الأجانب كلّهم من بغداد، وسوقهم نحو الحدود.

في تشرين الثاني1914. ثلاثة أيام احتفاليّة رسميّة: 22 و 23 و24 تشرين الثاني، تكريما للمئوية الثالثة لتطويب أمّنا القدّيسة تريزا ليسوع. كلّ الطوائف تأتي للمشاركة، كلّ بدورها، في إقامة الاحتفالات والوعظ. هي ثلاثة أيّام للصلاة بحرارة. في 24 مساء، زارنا رجال السلطة في مقرّ إقامتنا، وقاموا بالتحضيرات اللازمة لإبعادنا.

25 تشرين الثاني. شارك الأب الرئيس في مجلس السلطات الدينيّة المجتمعة، لتنظيم مستشفى ميدان خاصّ، على نفقة الكاثوليك في بعض مراكز الإرسالية. وجاء من يخبره أنّ قائد الشرطة يدعوه لمقابلته، في مشغل النجارة، في الإرسالية. وختمت السلطات المكان بالشمع الأحمر، وأمرت بتوفيق العمل فيه، وأعلنت بسط سلطتها عليه.

وبعد ذلك، في اليوم نفسه، عرّجوا على الدير، وأعلنوا للآباء أن عليهم إخلاء المكان ، مع مغيب الشمس. وتمّ وضع لائحة بالموجودات، وسُمح للآباء بأخذ أغراضهم الشخصيّة. ناموا في المدرسة، وتدبّروا أمر قوتهم بما أمكن.

26 تشرين الثاني. عادت السلطات نفسها لوضع لائحة بموجودات المدرسة، وأعلنوا أن على الآباء مغادرة الإمبراطورية العثمانية. وكان تصرف المدير العام للتعليم الرسمي لائقاً، فشكر الإرسالية على الخدمات التي قدّمتها، وعبّر عن أسفه للتدابير التي تفرضها الحرب. وأجاب الأب الرئيس: نأمل أن نعود. فتابع المدير كلامه قائلاً: آمل ذلك من أجل خير البلاد.

30 تشرين الثاني. ومرّت أيام عدة، في العمل على تحضيرات الرحلة إلى حلب، بحسب برنامج حراسة الموكب، ومنها إلى مرسين أو إلى بيروت. عبرنا النهر في المساء. وكانت القافلة تضمّ الأب الرئيس ليون ميشيل، والآباء ألفونس وماري نويل، وماري–آلان، ودُني وبعض الراهبات. أما الأب أنستاز فكان قد جرى نفيه، منذ ثمانية أيام، وتوجيهه نحو قيصرية كبادوكيا.

وبقي في بغداد الأب جوزف ماري لقلب يسوع، بعد تعيينه رئيساً بالنيابة، والأب ألبير ليسوع الإيطالي الجنسية، والأخ جيل النمساوي. وأقام الأب جوزف في بيته، أمّا الراهبان الآخران فاستقرّا في مطرانية السريان.

الأول من كانون الأول. انطلقت القافلة. وفي اليوم الثامن عشر، وصلنا إلى حلب، ومن هناك، وجّهونا نحو بيروت، بعد بضعة أيام من الاستراحة في حماة أو في حمص. وسِرَّنا أن يكون سفرنا على متن باخرة إيطالية، وأن نذهب إلى روما. استقبلنا الأب الأقدس مبارك 15، وأغدق علينا عبارات تشجيعه وبركاته. وبعد إقامة لثلاثة أسابيع في روما، قصدنا تاجيّا، حيث أمضينا ستة أشهر في النقاهة والاستمتاع بالخلوة، وبالحياة على النمط الكرمليّ.

في 24 آب، ركبنا السفينة من جنوى، ووصلنا إلى البصرة في 24 أيلول 1915: الأب الرئيس، والآباء ماري ألان وماري نويل، وكذلك الأب ميشيل الذي

جاء إلى ملاقاتنا في تاجيّا مع أبوين شابين إسبانيّين: باسكال وجان– ماري. وفي أرشيف البصرة، جرى تدوين أبرز الأحداث التي مرّت بين 24 أيلول 1915و 11 أيار، تاريخ عودتنا إلى بغداد". كان لهذه العودة طعم مرّ: الكنيسة محروقة، والدير منهوب، والمكتبة مبعثرة، وعدد قليل من المرسلين، والأعمال كلّها مقلوبة رأساً على عقب.

استلزم إصلاح الأمكنة سنوات عدَة. فالكنيسة لم تتهدّم، بفضل صلابة بنائها. وكان على الأب أنستاز العائد من منفاه في الأناضول، بعد أن شارف على الموت، أن يصرف سنوات عدَة، لاستعادة كتب المكتبة وشرائها من الأسواق.

ومع استتباب السلام، استطاع المرسلون العودة الى بلاد ما بين النهرين، التي أصبحت مستقلة في وطن اسمه العراق، وتحت الحماية الإنكليزية. أما عدد الرهبان فبلغ 16 في 1919، و 22 في 1921، ثلاثة من بينهم عراقيّون. ففي هذه السنة عينها 1921، أبرز ثلاثة شبَان عراقيَين نذورهم في آفون: سيليستان وجورج وغراسيان. الأول لم يستمر في دعوته، أما الآخران فوافتهما المنيَة: الأول في 1965، والثاني في 1974. ولمواجهة ضرورات الوضع المستجد، التحق بالمرسلين الناطقين باللغة الفرنسية ثلاثة رهبان إيرلنديّين. وقد عاد الى المدرسة والميتم طلابهما. فرمم الأب بيير ماري المشاغل، ونظَم مدرسة مهنية حقيقية، تُلبَي المتطلَبات الجديدة.

في البصرة، هناك الآن خمسة رهبان. في الضاحية البحرية قرب المرفأ، في العشّار، كان هناك كنيسة صغيرة ومرسَل مقيم. أما المدن الآتية: العمارة في العراق والمحمَرة وبوشهر في إيران، فكان لكل منها راهب ذو مركز ثابت. وسيتغيّر

مستقبل هذه البلدان، مع اكتشاف النفط في هذه المنطقة من العالم، وسيكون لذلك انعكاس على مستقبل هذه الإرساليات.

وسيميل العراق الجديد، الموضوع تحت الانتداب الإنكليزي، نحو تربية تُعطى بهذه اللغة، طبعا. ولم يكن كافيا للاضطلاع بالمهمّة، وجود رهبان إيرلنديّين. فَجَرَت مفاوضات طويلة، أسفرت عن تنازل الكرمليين عن المدرسة، لصالح اليسوعيّين الأميركيّين من ولاية بوسطن، في العام 1932. وقد وظّف اليسوعيّون طاقات كثيرة في البلد، وصار عندهم 50 راهباً. وسّعوا المدرسة وطوّروها، فغدت بالغة الشهرة، وأنشأوا جامعة الحكمة أيضاً.

وبعد أن أعاد الأب ليون ميشال المرسلين الى العراق ، رجع الى فرنسا في 1920، حيث توفّى في 1951. وحلّ بديلاً عنه الأب بروكار ليسوع، وكان قد بلغ من العمر 65 سنة. وقد هزم المناخ القاسي في العراق بنيته القويّة. فمات في كانون الأول في 1921. وقد شهدت هذه السنة عينها 1921 مصرع مرسَلَيْن آخرين: الأب المخضرم جوزيف–عمانوئيل، الموجود في العراق منذ العام 1886، والأب الشاب باسيل الإيرلندي، الذي وصل الى العراق في 27 آذار 1921، وما لبث أن صرعه المرض في 25 أيار من العام التالي.

وخَلَفَ الأب بروكار الأب أغسطين للعذراء من 1922 حتى 1927، وبعدها تمّ اختياره رئيساً إقليميّاً لآفينيون – أكيتين، ثم عاد مجدّدا، كمعاون للرئيس من 1930 الى 1938. وقد يكون فكّر في العودة الى فرنسا، لو لم يتمّ اختياره مسؤولاً عن تأسيس جديد في كامبودج. غير أن هذا المشروع توقّف بسبب مرضه، ومن ثمّ اندلاع الحرب في 1939. ومات في 1953، بعد عودته الى جبل–الكرمل، وله من العمر 83 سنة.

إنّ حقبة ما بين الحربين كانت حقبة ازدهار الأعمال المنجزة، على اختلاف أنواعها. فقد بلغ عدد الإرساليات حوالى 17، وأحيانا أكثر بقليل (21 في 1935)، وكانت موزّعة على ثلاثة مراكز رئيسة للإقامة: إثنان في العراق، وثالث في بلاد فارس، و19 مركزا في الخليج العربي.

في هذه الحقبة، أُقيمت احتفالات يوبيليّة عدّة: 300 سنة على تأسيس إرسالية البصرة (1923)، 200 سنة لإرسالية بغداد (1931)، و40 سنة لرسالة الأب أنستاز، وكلّها احتفالات أُقيمت بمشاركة تقليدية للمؤمنين، وإكليروس الطوائف الشرقية.

ولا بد من ذكر الأب جوزيف لويس من إقليم آفينيون – أكيتين، وقد تولّى منصب مدبّر رسولي لأبرشية إصفهان من 1922 الى 1932. أما رئاسة أساقفة بغداد فقد تولّاها، رهبان دومينيكان عدّة، وتولّاها كرمليّ واحد قبل الحرب: الأب جان للعائلة المقدسة، رئيس أساقفة من 1902 الى 1917. وقد كان لكرمليّ آخر ولاية أسقفيّة طويلة، هو الأب إتيان ماري للقلب الأقدس، من إقليم باريس، فظلّ رئيس أساقفة من 1939 حتى 1964. وقد بقي في العراق بعد استقالته، وحتى موته سنة 1970.

في 1940، بلغ عدد رهبان الإرساليّة 17 راهباً، موزّعين على ثلاثة مقرّات إقامة. وجاءت الحرب تغيّر المعطيات، مرّة إضافية جديدة: طَرْدُ البعض، ومجيء رهبان جدد. وبهذا كان يرتسم الوجه الجديد الذي ستطلّ به الإرساليّة في حقبة 1945– 1965.

الإرساليّة بعد الحرب العالمية الثانية والوضع الحاضر

عند اندلاع الحرب في 1939، كان في إرساليّة بلاد ما بين النهرين 17 راهباً، وثلاثة مقرّات إقامة: البصرة وبغداد وعبدان.

في 1945، بلغ عددهم 15، وحدث تغيير مهمّ على صعيد الأشخاص. فالمرسلون الإسبان الأربعة عادوا الى ديارهم، وراهبان من هنغاريا تمّ احتجازهما في 1942، ثمّ نفيهما، لأنّهما ينتميان الى بلد حليف لألمانيا النازيّة، واثنان وافتهما المنيّة: الأب جان ماري للطفل يسوع، وهو اسبانيّ ومرسل منذ 1942، وفضلا عن ذلك، غادر بعض الرهبان أيضا. من بين الوافدين الجدد، لا بدّ، أوّلاً من ذكر الأسقف الجديد إتيان ماري لقلب يسوع (دي شايلا)، من إقليم باريس، الذي وصل إلى بغداد مع أمين سرّه، بول ليسوع مريم، في 29 تشرين الأوّل 1939.

في 1940، 3 رهبان من إقليم هنغاريا، اثنان منهم كانا عُرضة للنفي في 1942: الأب باتريك لأمّ الله، والأب الياس للقدّيسة تريزا الطفل يسوع. أمّا الثالث فهو الأخ لوران للمسيح، يوغسلافي الجنسيّة، وقد كان مرسلا حتّى 1966. وفي هذه السنة عينها، انضمّ أحد أساتذة مدرسة بغداد، اسمه غونيه، ودخل عضواً نظاميّاً في الرهبنة الثالثة، متّخذاً اسم جوزف الغطاس. وقد تُوفّي في 1970، عن عمر يناهز 88 سنة.

وأخيرا في العام 1942– 1943، وصل المرسلون الثلاثة الأُول من إقليم مالطا، وشارك في حياة الإرساليّة حتّى 1975، الآباء: جان للصليب، وميشيل لملكة الكرمل، وكرميلو للحبل بلا دنس.

وكان للمخضرمين حضورهم الدائم: الأب أنستاز–ماري، وبيير–ماري، وماري–نويل (رئيس الإرساليّة من 1938حتّى 1948)، وغراسيان–ماري، وآنج، وسيكست، ودُني وجوزف–إيليا. وكانت الأعمال هي نفسها، كما في السابق. غير أنّ المؤسّسين كانوا يتقدّمون في السنّ: الأب بيير– ماري، عمره 80 سنة في 1945، وأنستاز عمره 79 سنة، وستكون وفاته في كانون الثاني 1947.

كان المالطيّون يعملون، بخاصّة، في البصرة وعبدان. وفي هذه المدينة الأخيرة، كانت تقوم أكبر مصفاة بترول في العالم، وكان الرهبان يؤمّنون الإرشاد الكاثوليكيّ لجماعة مسيحيّة صغيرة، ومتعدّدة الجنسيّات. وحين انطلقت ثورة الدكتور مصدّق في 1952، تعرّضوا للإبعاد، على الرغم من كلّ المقاومة التي أبداها الأب سيريل لأمّ الله.

في 1946، وصل راهبان من إقليم باريس: دُني لسان ميشال وبرنار– ماري للقدّيسة تريزا. وكان دُني الذراع اليمنى، ثمّ خليفة الأب بيير– ماري، وأضاف الى نشاطاته خدمة اجتماعيّة وعمل رحمة، ثمّ جمعيّة لمساعدة اللاجئين. وشاهده أبناء المدينة كلّهم يتجوّل، حاملا كيساً كبيرا على كتفه، وكانت جيوب ثيابه تتمزّق من ثقل الهبات التي لا تُحصى، مادّية وعينيّة، جمعها من أجل محتاجيه. وكانت وفاته في غمرة ممارسته لمهامّه، في 18 حزيران 1962، بينما كان عائداً من جولته، وكان الطقس حارّا جدّا، فتناول كأس ماء بارد ولفظ أنفاسه الأخيرة للحال. وكان له من العمر 68 عاما. وسبق موته موت الأب بيير– ماري بـ 12 يوماً: في الأوّل من تموز، انطفأت شعلة الحياة في رسول الصغار والفقراء، ورحل منهكاً، وله من العمر 97 سنة، بعد أن أمضى 65 سنة في خدمة إرساليّة العراق.

في 1948، وصل مرسل جديد آخر، هو تيوفان القدّيسة تريزا الطفل يسوع (ستيلا)، من إقليم لومبارديا، وكان مرسلاً سابقاً في الهند. وبما أن مدينة الكويت كانت في عزّ ازدهارها، جاء القرار بأن يؤَسَّس فيها مركزٌ دائم لراهب. وعُيّن الأب تيوفان لهذا المركز. وبسرعة، اكتسبت هذه الإرساليّة أهمّية لافتة، وجرى فصلها عن إرساليّة بلاد ما بين النهرين. ومنذ 1954، تحوّلت الى نيابة رسوليّة، مع الأب تيوفان، أوّل نائب رسوليّ. وانضمّ إليه 3 أو 4 رهبان كرمليّين.

أمّا في العراق، فلم يكن تطوّر الأمور على هذا القدر من الإيجابيّة. فتقدّم الرهبان في العمر، وبعض الفوضى في الإدارة، والروتين في النشاطات، كلّ هذه العوامل كانت تعطي الإرسالية طابع القِدَم. وقد نجح البروفسور ماسينيون، صديق الكرمليّين وإرساليّة بغداد التي عرفها منذ 1908، بإقناع الرئيس الإقليمي لباريس ببذل جهود جادّة في تأهيل المرسلين الجدد: ووُضعَت معرفة اللغة العربية التي لم تكن شأنا معهوداً، في مركز الصدارة.

أمضى المرسلون المستقبليّون ثلاث سنوات في باريس، في معهد اللغات الشرقيّة، يدرسون اللغة العربية والثقافة الإسلامية. وهكذا وصل الى بغداد في 26 تشرين الأوّل 1956 (بعد ساعات من وصول الأب أنستاز، الرئيس العام) الآباء روبير للعذراء، وإيرينه للزيارة وريمون للقدّيسة جنفياف. وليُسمَح لنا، في هذا السياق، إيراد هذه الدعابة لما فيها من تعبير بليغ عن ذهنيّة تلك الحقبة: لمّا كان رئيس الإرسالية يتمنّى على المرسلين– الطلبة اختصار مدّة دراستهم في باريس، والعودة الفوريّة الى بغداد، لفت أحدهم الى أنه يكون من المفيد، رغم كلّ شيء، أن ينضمّ إلينا رهبان ناطقون باللغة العربية...أقرّ الأب الرئيس بأهميّة الأمر وأكّد

قائلاً: هكذا حين يكون الشمّاس غائباً أو مريضاً، سيتمكن أحد هؤلاء المرسلين أن يُدير تلاوة المسبحة في الميتم... (شهادة حقيقيّة)!

إلاّ أنّ "الشبان الصغار"، وبقدرٍ لا بأس به من السرعة، كما كان يقول المرسلون الموقّرون، اكتسبوا توسيعاً لميدان عملهم. وكانت البداية نوعاً من التعاون مع الطوائف الشرقيّة، وتقديم خدمات لها، بدون نوايا مبيّتة. قد يبدو ذلك بديهيّاً، ولكن حين كنّا نرى نوعيّة العلاقات المطبوعة بالتهذيب ليس إلاّ، كان ذلك يمثّل تقدماً مرموقاً. وشهدنا بعد ذلك تأسيس مجموعات عمل لمتابعة الطلبة المتروكين كليّاً، حتى ذلك الحين، ومن ثَمّ إنشاء مركز القديس يوسف، هذا البيت بأعماله ومبادراته المفتوحة لكل الإرادات الطيّبة، والموضوع تحت رعاية أساقفة بغداد الكاثوليك. وكانت المرحلة التالية إنشاء فريق من الكهنة الكاثوليك والأرثوذكس، من أجل الصلاة معاً والحوار... ومن ثمّ فريق مسكوني، وصولاً إلى تنظيم تعليم مسيحي مشترك بين الطوائف، بدلا من شرذمة القوى، وتقسيمها بين رعايا مختلف الطوائف. ولّى زمانٌ، كان المرسلون الكرمليّون يشكّللون فيه غالبية الإكليروس في بغداد. وصار الآن لكلّ الطوائف أساقفتها المقيمون بينها، وكنائسها المتعدّدة. وبات من الجليّ والمحسوم أنّ ساعة التعاون والخدمة قد دقّت، وبكل تأكيد، ساعة نوع من الامّحاء المتواضع أيضاً.

وازدهرت هذه النشاطات المختلفة، حتى العام 1967–1968. وتركزّت نشاطات المرسلين في هذه الحقبة، على الخِدَم الآتية: الرعيّة اللاتينية، والمدرسة والميتم، ومركز الإرشاد المتّصل بجماعات مسيحيّة عدّة، وبعض الاحتفالات بالذبيحة الإلهية، في بعض الشركات الأجنبية العاملة في العراق. وكان بمقدورنا،

بكل نزاهة، أن نتصور شيئاً آخر مختلفاً، غير أن ذهنيّة البلد، التقليديّة عن سابق تصوّر وتصميم، لا تحبذّ التغيير.

كان الكرمليّون يعلّمون في الإكليريكية البطريركيّة الكلدانيّة، وكان بِودّ رئيس الرهبان الكلدان أن يأتي الرهبان، للاستقرار بالقرب من ديره، وتسلّم مهام المبتدئين... وكان من عواقب "حرب الأيام الستّة" الإبعاد الجماعي المكثّف لليسوعيين: الرهبان الأمريكيون كلّهم، وكان عددهم أربعين، جرى إبعادهم إلى الخارج. وسقطت سقوطاً كاملاً المشاريع الطامحة إلى عيش حياة كرمليّة حقة، بالانسحاب التدريجي من الأعمال التقليديّة (المدرسة، 1959 والميتم، 1968). وجرى التخلّي عن مشروع تأسيس دير معزول الى حدّ ما، في الطبيعة، وأُوقِف العمل في لجان الكهنة، والمسكونيّة، والتعليم المسيحيّ: صار التعاطي مع الرهبان الأجانب (الكرمليّين والدومينيكان والمخلّصيّين) عملا يثير الشبهات. وجرى تعليق التعليم في الإكليريكية وللرهبان...

في هذه السنة المشؤومة، بلغ عدد الرهبان 10 في مقرّين للإقامة: البصرة وبغداد. ولا بدّ من الإشارة أيضاً الى أنّه، منذ 1966، جرى تسليم إرساليّة البصرة الى إقليم مالطة.

مرّت السنون وكان العدد يتناقص، بسبب الوفيآت أو إبعاد بعض الرهبان، من دون معرفة السبب رسميّا. وفي 1972، هبط العدد إلى 7 رهبان. وحين عاد كاتب هذه السطور من لبنان، حيث كان قد أمضى سنتين لدراسة اللغة العربية، لم يكن في دير بغداد سوى 4 رهبان. ويعود تاريخ وصولهم إلى 1956: أحدهم أُبعِد إلى الخارج طوال سنة تقريبا. وكان في البصرة راهب واحد، وآخر في المطرانية هو الأب أرنست–ماري، رئيس أساقفة اللاتين من 1972 الى 1983. مع أخذ

تراجع العدد في الحسبان، بدأت إعادة تنظيم العمل بحسب بعض الخطوط التوجيهية الرئيسة.

صار جوهر خِدَم الرهبان يُمارَس، من ذلك الوقت وصاعدا، في دير بغداد: الطلبة، بيت الرياضة الروحية، الليتورجيا المتكيّفة مع الشباب، بصورة خاصة. وصار لمركز القديس يوسف، منذ ذلك الحين، مدير غير كرمليّ، وباتت إدارة الرعية في عهدة الأسقف، في مرحلة أولى في كنيسة الدير، ثمّ بعد 1972 في كنيسة مركز القديس يوسف. ولمّا صارت هذه الأبنية مهددة بالتأميم، جرى إلغاء المركز، وضمّ الأمكنة الى الكاتدرائية، مع الحفاظ على ملكية الكرمليين لها. إلّا أنّ المدرسة لم تَسْلم من التأميم. وبقي فيها، مع تلاميذها الألفين، بعض الراهبات في عداد المعلمين، حتى إنّ يوم العطلة بقي الأحد لا الجمعة.

في 1978، أبلغ الكرسي الرسولي المعنيّين أنّه يبغي إنهاء الوضع القانوني الذي نشأ في 1896، ما يعني أنّ إرسالية ما بين النهرين لن تكون بعد اليوم إرسالية قائمة بذاتها، أي مستقلّة عن سلطة الأسقف اللاتيني. وتقبلت الجماعة هذا الطرح للحال. وقد صدر قرار الإلغاء في 14 كانون الأول، يوم عيد أبينا القديس يوحنا الصليب.

وكان قد وقع اختيار الرهبان على هذا اليوم، للاحتفال الرسمي بذكرى وصول الأب عمانوئيل للقديس ألبير (1728)، وذكرى حضور الكرمليين في بغداد حضورا مستداماً. وأصدرت الجماعة لهذه المناسبة كتاباً باللغة العربية، يعرض تاريخ الرهبانية، وتعليم كلّ من القديسة تريزا ويوحنا الصليب، وتاريخ الإرسالية أيضا. وأقيم احتفال في 14 كانون الأول، شاركت فيه، كالمعتاد، مختلف الطوائف الكاثوليكية والأرثوذكسية، وعدد من الراهبات والإكليريكيين والرهبان، وحشد من

أصدقاء الجماعة. وترافق الاحتفال مع معرض للصور والأرشيف، شهادة لهذا التاريخ.

ومع النجاح البارز الذي لاقاه الكتاب، شقّت طريقها الى النور فكرة التخطيط المبدئيّ، لإنشاء دار نشر دينيّة، كانت في حينها شبه غائبة. وتألّفت، لهذه الغاية، لجنة من الدومينيكان والكرمليّين، يغذّونها ماليّاً، هم وبعض المساهمين الآخرين. وفي نهاية 1985، جرى إصدار 14 كتابا، في مجال الروحانيّات (تريزا ليسوع، تريزا ليزيو، واليصابات للثالوث الأقدس)، وفي مجال التاريخ وسِيَر القدّيسين والتعليم المسيحي... أمّا المجال البيبلي، فلم تكن مقاربته سهلة، بسبب حظر رقابيّ، فرضته الدولة على كلّ ما يتّصل بالكتب المقدّسة: الكتاب المقدّس أو القرآن.

في البصرة، جرى إبعاد آخر الرهبان المالطيّين، الأب أوجين في 1975، ومنذ ذلك الحين، تسلّم إقليم لبنان مسؤوليات هذه الإرساليّة. وقد أدار الأب جان طومب، على الرغم من تقدّمه في السن، بناء كنيسة جديدة وواسعة، يتوافد إليها المؤمنون بكثرة. وقد خلفه أخوه الأب فرنسوا في صيف 1984، وعاونه من حين لآخر راهب من بغداد. غير أنّ نقاطاً سوداء مقلقة أحاطت بهذه السنوات الأخيرة. فمنذ شباط 1980، صدر قانون يمنع الأجانب من الإقامة في البلد، أكثر من خمس سنوات. وطال هذا القانون الجميع. وقد جرى تأجيل قرار الإبعاد ثلاثاً وعشرين مرة، وفي عيد الميلاد 1980، أُلغي القرار، أقلّه لهذه السنة، بتدخّل من البابا يوحنا بولس الثاني. ومنذ ذلك الحين، يتمّ تجديد الإقامة بصورة أسهل نسبياً، ولكن غير مؤكّدة قطعاً. وثمّة ما يجعل الأعصاب عُرضةً لامتحان قاسٍ، بدون أدنى شك، ما ينعكس سلباً على النشاطات الرسولية.

وجاء اندلاع الحرب بين العراق وإيران، في أيلول 1980، يزيد هذا المسار تدهوراً. أصاب الشلل الأنشطة كلّها، حتى قدّاسات الأحد تراجعت إلى حدّها الأدنى، وتضاءل عدد المشاركين فيها، بسبب الغارات الجويّة، وانقطاعات التيار الكهربائي. وأُغلِقت بيوت استقبال الضيوف للأكل والنوم، وتوقّف استقبال الطلاب. ولحوالى السنة، كان لدى الرهبان الانطباع بأنهم عاطلون عن العمل. ثمّ استعادوا، شيئاً فشيئاً، بعض الأنشطة، وعادت مجموعات الطلاب تعمل بكامل طاقتها، ورجعت رُتَب الأحد إلى طبيعتها. أما خدمات الاستضافة فلم تعد تستقبل المجموعات إلاّ للنهار وحسب.

ومع إلغاء الوضع القانوني للإرساليّة القائمة لذاتها، لم يعد للإرساليّة رئيس، والدير يُدار ككلّ الأديار الأخرى في إقليم باريس. كان الرئيس الأوّل الأب روبير للعذراء (1978–1984)، وبعد ذلك حلّ مكانه الأب ميشيل للقديسة مريم، من إقليم أفينيون –آكيتين. ولمّا بلغ المطران إرنست نياري السنّ القانونيّة، حلّ مكانه الأب مرسيل دحدح، الرئيس العام للبنان. بعد تنصيبه في آب 1983، تسلّم مقاليد مقرّه الأسقفي في تشرين الأول.

في آخر سنة 1985، كانت الجماعة تضمّ 5 رهبان (4 من باريس، 1 من أفينيون أكيتين)، 2منهم فرنسيان، و1 سويسري، و1 بلجيكي، وطالبا ابتداء اثنان عراقيان. أما النشاطات فهي تأهيل الطلاب دينيّاً، والليتورجيا، والإرشاد الروحي، ووعظ الرياضات الروحية، والتعليم في الإكليريكية الكبرى، وفي مُقرّر اللاهوت الذي أُنشىء للعلمانيين منذ سنتين، وإرشاد جماعة من الراهبات، والمساعدة الرعوية في الرعية الكلدانية الشعبية، ونشر الكتب الدينيّة، وبعض

الخدمات التي تُقدّم لشركات أجنبية عاملة في البلاد (بولونيّون وفرنسيّون وبرازيليّون وفيليبينيّون).

وعلى الرغم من هذه الأزمنة الصعبة، طلب شابان عراقيان (أحدهما مُجاز في الحقوق وآخر في الأدب الإنكليزي) الدخول إلى الكرمل. وقد حالت الحرب دون دخولهما الابتداء، واستُدعي أحدهما الى الخدمة العسكريّة منذ 5 سنوات.

في ختام هذه السلسلة من المقالات، تَطْلب جماعة بغداد من كلّ الذين سيكون عندهم الصبر على قراءتها، أن يتوجّهوا بفكرهم، وأن يرفعوا صلاتهم الى سيّدة الكرمل، لكي تضمن لهذه الإرساليّة مستقبلا يليق بما أنجزه سابقوهم.

الأب ميشيل للقديسة مريم الكرملي

رئيس الدير

20 / 12 / 1985 – بغداد

إرسالية الكرمل في العراق

2022 – 1985

إنَّ هذه الفترة الممتدّة على مدار 37 عاماً، كانت مُضطربة للغاية، مع تَغييرات كبيرة في تكوين وحياة جماعة الإخوة الكرمليين في بغداد.

أعوام الثمانينيات

إن الحرب بين عراق صدام حسين وإيران آية الله الخميني فرضت، في بداياتها، نوعاً من الشلل في نشاطات الآباء الكرمليين في بغداد، حتى تم تقليل قداديس الأحد إلى الحد الأدنى مع نسبة منخفضة من حضور المؤمنين، وذلك بسبب صفارات الإنذار وكثرة انقطاع التيار الكهربائي. وبدأت النشاطات والرسالة تعود شيئاً فشيئاً إلى مجراها الطبيعي تقريباً، إلى وضعها الذي كانت عليه قبل الحرب.

لكن هذه الحرب أثَّرَت على حياة الكرمليين وأضعفت الجماعة في العديد من المجالات. أولاً في صحتهم، الجسدية والنفسية على حد سواء، لان المناخ السياسي كان مُثقَلاً بالتهديدات، ومسألة تجديد الإقامات السنوية لم تكن أقلها! هل سيُطرَدون من العراق أم سيتابعون حياتهم هناك؟ أما بالنسبة للشباب العراقيين الذين كانوا يرغبون في الدخول إلى الرهبنة عندهم، فكانوا معرضين للإستدعاء للخدمة العسكرية في أية لحظة. هكذا إذن أكثر النشاطات الرسولية بقيت قائمة ولكن عدد المشاركين وحماسهم انخفض.

أعوام التسعينيات

في ربيع عام 1990، التمس رئيس أساقفة بغداد على اللاتين، سيادة المطران بولس (مرسيل) دحدح، وهو أصلاً كرملي لبناني، من الأقاليم الكرملية الثلاثة الآتية، إقليم باريس وإقليم آفينيون–آكيتين وإقليم لبنان، التمس منهم أن يضخوا "دماً جديداً" في دير بغداد. فكان الرد سلبياً، ورغم ذلك آثرت الجماعة على متابعة حياتها وفرحت بدخول الأخ غدير في مرحلة الإبتداء في دير "كوميرفيل" في 12 آذار. كان الأخ غدير قد دخل دير فاطمة في بغداد في 1 / 10 / 1981 كراغب. وكان السفر آنذاك ممنوعاً بسبب الحرب ضد إيران. فكان إذن يعيش في الدير في بغداد حيث تابع الدراسة الجامعية حتى عام 1987، واستطاع السفر إلى فرنسا عام 1990، بعد أن أُزيل منع السفر، كي يتمكن من تكملة مسيرته الكرملية، ودخول الإبتداء الرسمية.

كان آنذاك في بغداد "راغبان" [1]، وعدة "ناظرين" [2]، مما يعكس بعض الحيوية في إرسالية بغداد، ويعطي الرجاء، بَيْدَ أن أغلبية هؤلاء الشبان لم يتابعوا مسيرتهم.

في ربيع عام 1990، قرر المجمع الإقليمي لإقليم باريس أن يحافظ على العلاقات مع إرسالية بغداد وأن يلتزم بتأمين التنشئة الروحية في فرنسا للرهبان الكرمليين العراقيين. ومن ناحية أخرى، أقر المجمع ما كان حقيقة بالفعل، وهو نهاية الوجود الكرملي في مدينة البصرة.

---

[1]) مرحلة الراغبية وهي لا تقل عن 6 أشهر؛ هي المرحلة قبل مرحلة الإبتداء في مسيرة الرهبنة الكرملية.

[2]) الناظرية، من اسمها تعني أن يأتي الشخص وينظر "تعال وانظر". وهي المرحلة الإبتدائية الأولى للتعرف على حياة الرهبانية ومتطلباتها.

وفتح غزو العراق للكويت، في آب 1991، مرحلة طويلة من الإضطرابات (حروب، حركات تمرد، إرهاب، عجز حكومات) والتي أضعفت العراق بشكل مستمر مع عواقب سياسية واجتماعية واقتصادية لم تنجو من أوزارها البلاد إلى اليوم، حتى بعد مرور أكثر من 30 عاماً!

حرب الخليج، التي تبعها الحصار الإقتصادي، كانت قصيرة الأمد لكن لحقت بها قلاقل في كردستان العراق وفي الجنوب الشيعي العراقي. كان على الأخوة أن يقوموا بتجديد الإقامة في كل عام. وكان الأب ميشيل آنذاك رئيساً للدير للمرة الثالثة. وقرر الرهبان البقاء في بغداد، وأصبح الدير مركزاً لتوزيع معونات إنسانية على المعوزين. وكان هذا أهم نشاط للرهبان خلال بدايات التسعينيات، فقد تم مساعدة ما يقارب الـ 3000 عائلة، أي 21,000 شخصاً شهرياً. نَجَمَ عن ذلك إرهاقٌ جسدي وعصبي، ولكن في نفس الوقت، أفرز أيضاً تجربة مفيدة على مستوى العمل والصلاة التي كانت تجمع الرهبان الكرمليون مع الشباب العلمانيين الذين كانوا يساعدنوهم في الأعمال الإنسانية.

في كل عام كان الإخوة الأوروبيون يَحصلون على تصريح إقامتهم.

في خريف عام 1990، قام الأب روبير للعذراء، في باريس، بنشر عمله المتعلق بيوحنا الدلياثي، ثم قام بنشر دراسته الموسعة حول تعليمه *"التعليم الروحي ليوحنا الدالياثي"*.

في أيلول عام 1991 تم انطاق مشروع قديم، ألا وهو مدرسة مار إيليا للصلاة. وفي الخامس عشر من ذات الشهر، قام الأخ غدير باجهار نذوره الأولى في دير الإبتداء "كومرفيل".

في الشهر الثالث من عام 1992 تمَّ تعيين الأب ميشيل عضواً في اللجنة الإدارية لكاريتاس العراق التي كان قد تم إنشاؤها حديثا. في نفس تلك الفترة، شَرَعَ العديد من الشباب محاولة السير في طريق الدعوة الكرملية، لكن الوضع العام وَضَعَ العديد من العقبات أمام ذلك. مدرسة مار إيليا للصلاة بدأت تتطور وتمتد على مدار عدة سنين، وكانت نشاطاتها الإعتيادية في بغداد، لكن أيضاً بعض النشاطات المحدودة في شمال العراق. وكان تركيزها على الروحانية الشرقية.

في 8 كانون الثاني 1998، قام الأب غدير بتأسيس جماعة *"إِخْوَة المسيح"* التي أعطت ثماراً كثيرة، لأن منها وُلِدَت جماعات أخرى في السنوات التالية.

في عام 1999، كان لإرسالية بغداد، مبتدئ واحد في الحازمية، في لبنان، وأربعة راغبين في دير بغداد.

الأعوام 2000 – 2008

خلال السنتين 2001 – 2002، كان هناك ثلاثة إخوة عراقيين ناذرين النذور البسيطة، يكملون تنشئتهم الروحية في مدينة "لِيل" الفرنسية، لكنهم لم يكملوا في الرهبانية. من ناحية أخرى، قام الأخ توماس، وهو عراقي آخر، ناذر بسيط كان يدرس في بيروت، جاهر بنذوره الإحتفالية في خريف عام 2002.

حرب العراق أو حرب الخليج الثانية بدأت رسميا في 20 مارس 2003 بغزو العراق من قبل التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة. نتائج هذا الغزو المتلاحقة كانت الهزيمة السريعة للجيش العراقي، وإنشاء حكومة جديدة واعتقال صدام حسين ومن ثم إعدامه.

وخلال السنوات التي تلت ذلك لم تتحسن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا بالكاد. واستمر انعدام الأمن والعنف على الرغم من تواجد القوات الأمريكية.

بعد الحرب، عاد الإخوة روبير وريمون وميشيل، الذين عاشوا في بغداد لعقود، إلى فرنسا بشكل دائم لأسباب صحية. كانت حالتهم الصحية متعَبة لدرجة أنهم لم يعيشوا طويلا بعد ذلك. فقد تُوفي الأب ميشيل في 29 حزيران 2004، والأب ريمون في 12 حزيران 2006، والأب روبير في 9 آب 2007. لنتذكر أنهم عاشوا وعملوا طويلا في خدمة الإنجيل في العراق، في الإرسالية الكرملية. ورغم كل هذه التقلبات تابعت الإرسالية الكرملية في العراق مسيرتها. بعد الحرب، كانت هناك رغبة في تدشين أسلوب حياة جديد في دير بغداد، وذلك لثلاثة أسباب: الأمانة للدعوة المسيحية ولدعوة الكرمليين؛ الأمانة لتاريخ الكرمليين في هذا البلد؛ والمشاركة في إعادة بناء العراق.

في دير بغداد في تلك الفترة، كان هناك خمسة "راغبين"، علامة على مستقبل محتمل. في القداس اليومي، كانت هناك دائما مجموعة من حوالي أربعين مؤمنا، يشتركون أيضا في صلاة المساء. الأب مانويل، كرملي إسباني، لم يكن يتقن اللغة العربية، ولكنه كان قريباً من الشباب. كان موكلا على الأمور المالية للدير، والمسؤول عن التغذية، وأمين مكتبة الدير، وكان يقدم بعض الخدمات الرعوية لكنيسة الدير، عذراء فاطمة، وكذلك لكاتدرائية اللاتين، وكان يشارك في خدمة مساعدة الفقراء، وكان أيضاً يساعد الأبوين غدير وتوماس في مهمتهما في تنشئة "الراغبين".

أما الأب غدير فقد كان رئيس الدير. كان يهتم بجماعات الصلاة، والتنشئة الكتابية، وبجماعات علمانية مكرسة وبجماعة للمتزوجين الشباب الذين أرادوا تكريس حياتهم للمسيح ضمن حياتهم الزوجية. كان أيضاً النائب العام لسيادة المطران جان سليمان، رئيس أساقفة بغداد على اللاتين، كما كان المسؤول على خدمة الفقراء. كان أيضاً يمارس نشاطه كمُنَشِّيء للعلمانيين في معهد التنشئة والحياة الروحية (الذي أسسه عام 2000) والذي كان يهدف إلى تنشئة العلمانيين المنخرطين في حياة الكنيسة.

في 19 آذار 2005، افتتح الكرمليون في بغداد مركز القديس يوسف لخدمة الشبيبة، والمحتوي على العديد من الأنشطة: محاضرات؛ مركز للأنترنت؛ مرافقة روحية، التعليم المسيحي؛ قاعة رياضية، لجنة لمساعدة الفقراء، إلخ. وقد عهد المطران جان سليمان بإدارة هذه المؤسسة الجديدة إلى الأب غدير.

كان للإرسالية مشروعاً آخر تتمنى تحقيقه، وهو تأسيس دار للرياضات الروحية. كان ذلك ممكناً من خلال استعادة أحد دَيرينا المُعارَين للراهبات الدومنيكيات خلال العام 1960. لقد أدى وضع البلاد إلى العودة إلى جوهر الدعوة الكرملية، وإلى مراجعة الكرمليين حياتهم ورسالتهم.

يوم 29 تشرين الأول 2005 كان بداية عام مرحلة الأبتداء لأربعة "راغبين". وكانت الحياة الجماعية بشكل عام جيدة وأخوية ومليئة بالحياة. ركزت هذه المرحلة على تنشئة "المبتدئين". كان ذلك العام صعباً ومتطلباً للآباء المُشرفين على التنشئة. فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي ينتقل فيها الراغبون إلى الأبتداء، ثم يجاهرون بنذورهم البسيطة، كل ذلك يتم في نفس المكان، في دير بغداد!

استغرق الأمر ستة أشهر للحصول على التأشيرات اللازمة لإرسال هؤلاء الأخوة الأربعة إلى لبنان لغرض تكملة تنشئتهم الروحية. خلال هذا الوقت المعقد، غادر إثنان منهم الرهبنة.

في عام 2007، كان دير الآباء الكرمليين مكاناً يجذب العديد من المسيحيين للصلاة. كان عدد المؤمنين في قداس الأحد أكثر من 200 شخص، وما يقارب الثلاثين في قداديس أيام الأسبوع الأخرى. وكان بعض الإخوة المسلمين يأتون إلى الدير لتقديم الشموع إلى العذراء مريم، سيدة جبل الكرمل ويطلبوا صلاة الرهبان، وهي ممارسات لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا.

غادر الأب مانويل العراق في آذار 2007 لأسباب أمنية. وبالتالي الأبوان غدير وتوما، اللذان كانا قد عاشا لفترة في جماعة ديرية تضم ستة شباب، يجدا نفسيهما أخيرا اثنين فقط، مع حياة جماعية، وخاصة ليتورجية، فقيرة جداً.

في عام 2008 ، بدأ اثنان من الناذرين النذور البسيطة دراستهم الدينية في لبنان. خلال هذه السنوات كانت هناك هجرة قوية للعائلات المسيحية نحو الخارج، ولم يسلم من ذلك الكهنة. وكان قادة الكنيسة غير قادرين على التعامل مع مثل هذا الوضع الكارثي. وقد أدت الإنقسامات فيما بينهم إلى تفاقم هذا الوضع المؤسف. وبدأت منطقة كردستان العراق تستقطب الكثير من المسيحيين ومن الكنائس، نَظَراً لتحسن الوضع الأمني والأحوال المعيشية نوعما هناك. كما لوحِظَ أيضا نمو الكنائس الإنجيلية، التي استغلت إمكانياتها المالية الكبيرة لجذب مؤمني الكنائس التقليدية.

وتابع الأبوان غدير وتوماس رسالتهما في الحي، وهي رسالة مكثفة ومتعددة: التعليم المسيحي، والقداديس في الدير وفي كاتدرائية اللاتين، وتسيير مركز القديس يوسف، والعديد من المجاميع الروحية المختلفة: مجاميع الكتاب المقدس؛ مجاميع الصلاة؛ جماعة إخْوَة المسيح؛ جماعة بنات مريم العذراء سيدة جبل الكرمل (المكرسات)؛ جماعة المتزوجين (جماعة العائلة المقدسة).

وكان الأب غدير يعمل على تشكيل مشاريع جديدة: أخوية ثوب العذراء؛ جماعة الكرمل العلماني؛ استقبال وإدارة رياضات روحية للشباب والكبار؛ مجاميع تهتم بالعائلة.

الأعوام 2008 – 2011

منذ رحيل الأب توماس عام 2009 لفترة من التنشئة في لبنان، تقلصت جماعة الدير إلى ثلاثة إخوة فقط، الأب غدير رئيس الدير واثنين ناذرين النذور البسيطة، هلال ورافد. حاول الثلاثة مواصلة الحياة الجماعية قدر المستطاع. ثم يبرز عندها سؤال جوهري: ما هو دور الكرمليين في هذا الوضع المأساوي الذي يمر به العراق؟

هكذا تم تحديد المَهام المُلِحّة في مكانين مختلفين في بغداد. في منطقة دير عذراء فاطمة: التعليم المسيحي للأطفال؛ التحضير للمناولة الأولى؛ الإهتمام بشبيبة الحي؛ مساعدة الفقراء، والتي تمثل نصف الميزانية. أما المنطقة الثانية فهي منطقة كاتدرائية اللاتين: الإهتمام بالليترجية؛ وبمركز القديس يوسف، وبمركز الرياضات الروحية.

مجاميع مختلفة كانت قد بدأها الأب غدير منذ عام 1997، واصلت أنشطتها: مجاميع الكتاب المقدس؛ مجاميع الصلاة؛ جماعة إخْوَة المسيح؛ جماعة بنات مريم العذراء سيدة جبل الكرمل، وهي جمعية مؤمنين علمانية تأسست عام 2001. وقد تم استخدام دير سابق للرهبنة تم استرداده عام 2006 كمركز لاستقبال الرياضات الروحية وذلك بمساعدة واشراف بنات مريم العذراء سيدة جبل الكرمل. وأيضاً أخوية ثوب العذراء التي تأسست عام 2008، وكان تتكون من 52 عضو عام 2011. في نفس العام 2008 ، تم تأسيس جماعة الكرمل العلماني، وكانت تتكون عام 2011 من 26 عضو، كانوا يتهيئون لإجهار وعودهم البسيطة. هذه الأرقام تصبح لافتة للنظر عند مقارنتها بالانخفاض المستمر في عدد المسيحيين في بغداد بسبب الهجرة!

بشكل عام ، كان عام 2008 عاماً غنياً جداً للرسالة.

فيما يلي الرسالات أو الأنشطة المختلفة في كاتدرائية اللاتين أو في دير مريم العذراء سيدة الكرمل القريب منها:

- مدرسة صلاة أسبوعية.
- رياضات روحية للشباب ولمجاميع أخرى سنوياً.
- مركز للإنترنت.
- دراسات كتابية مقدمة لجمهور واسع.
- سهرة صلاة شهرية.
- لقاء سنوي يجمع كل المجاميع.
- لجنة لمساعدة ضحايا الإرهاب والاضطهاد الديني.
- يومان في الأسبوع مخصصَين للمرافقة الروحية.

في 15 آب 2010، تم افتتاح كنيسة دير عذراء فاطمة بحلتها الجديدة بعد الأضرار الناجمة عن الهجوم بسيارة مفخخة على السفارة الإيرانية، الواقعة على بعد 150 متراً من الدير، في عيد الفصح 2010. وحضر الإفتتاح رئيس إقليم باريس الكرملي آنذاك الأب أوليفييه روسو، ورئيس أساقفة بغداد على اللاتين، سيادة المطران جان سليمان.

باشر الكرمليون مشاريع أخرى، مثل نشاط ورسالة جديدة مع الشبيبة، وأخرى مثلها في كردستان، في شمال البلاد. بخصوص الرسالة في كردستان العراق، كان هناك بيع عقارات في جنوب البلاد (مدينة العمارة) واستبدالها بمنزلين في دهوك في كردستان لجعلها مركزاً لاستقبال وإحياء الرياضات الروحية.

ومن المشاريع الأخرى التي كانت جارية، تأسيس جماعة من كرمليات القديس يوسف في بغداد. لكن مذبحة كنيسة سيدة النجاة عام 2010، وبداية الحرب الأهلية في سوريا التي بدأت عام 2011، أدت إلى تأجيل هذا المشروع لوقت لاحق.

وأخيراً، في بداية نيسان 2011، كان هناك لقاء في لبنان بين الرئيس العام للكرمليين وبين مسؤولي الكرمليين في الشرق الأوسط. تمت في هذا اللقاء دراسة وضع دير بغداد، وخرجت بفكرة الحصول على متطوعين للذهاب إلى بغداد لتعزيز الجماعة الصغيرة المتكونة من الإخوة الثلاثة.

الأعوام 2011 – 2014

في كانون الأول عام 2011، وقع حدثاً بارزاً أثر على وضع البلاد آنذاك، ألا وهو رحيل القوات الأمريكية عن العراق. لكن هذا لم يتبعه استقرار حقيقي للبلاد. ولا تزال الصعوبات السياسية والاقتصادية قائمة. فقد كانت البلاد تعاني بشكل خاص من الانقسامات بين الشيعة والسنة والأكراد. وكانت الهجمات وأحداث العنف مستمرة. وكانت الأقلية المسيحية في حالة ضعيفة إلى حد كبير بسبب الاضطهادات والهجرة، الناجمة عن ذلك.

خلال فترة الثلاث سنوات هذه بين 2011 – 2014، قام الأب أوليفييه ماري روسو، الرئيس الإقليمي آنذاك، بأربع رحلات إلى العراق. كان هذا الحضور دعماً كبيرا للأب غدير، واستطاع الأب أوليفييه أن يرى استحالة وجود جماعة كرملية في بغداد مكونة من إخوة عراقيين، وذلك بسبب هشاشة الدعوات وانعدام روح الطاعة والثقة عند الشباب آنذاك. لهذا السبب رفض الرئيس الإقليمي تجديد نذور الأخ رافد.

من جانبه، الأب توماس، الذي كان قد غادر بغداد للدراسة في لبنان، طلب في النهاية السماح له بترك الرهبنة للدخول في الكنيسة الكلدانية.

قام الأب روبير –بولس، مستشار الأب العام، بزيارة رعوية لإرسالية بغداد من 13 إلى 19 تشرين الثاني 2013. وإحدى نتائج هذه الزيارة هي إرسال الأخ هلال، بناء على طلبه، إلى إقليم لبنان الكرملي بهدف الإنتماء إليه. وكان القرار المهم الآخر هو إبقاء الأب غدير في بغداد باعتباره الكرملي الوحيد. وهكذا وجد

هذا الأخير نفسه في وضع إنساني صعب واستثنائي تماماً من وجهة نظر الحياة الرهبانية. ظل السياق السياسي والاجتماعي والاقتصادي العام متدهوراً كما كان في السابق، وبالنسبة للمسيحيين بدا الحل دائما هو الهجرة.

واصل الأب غدير حياته في الصلاة مع العلمانيين، ونشاطاته الروحية العديدة مثل التعليم المسيحي، واستقبال الفقراء ومساعدتهم (110 عائلة مسجلة). وكل ما كان مُخَطَّط له كلقاءات أو احتفالات كان تحت رحمة الأحداث. ومع ذلك، تطورت الرسالة في بغداد، فجماعة الكرمل العلماني، وأخوية الثوب، وجماعة إخْوَة المسيح، ومكرسين علمانيين، وبنات مريم العذراء سيدة جبل الكرمل (جماعة المكرسات)، ومجموعات أخرى، كل هذه كانت شاهدة على إيمان مذهل.

رسالة الكرمل هذه كانت تجري في الأديار الثلاثة في العراق. في بغداد (دير وكنيسة عذراء فاطمة)، حيث يقيم الأب غدير عادة، وفي دير مريم العذراء سيدة جبل الكرمل، حيث تقيم المكرسات العلمانيات، بنات مريم العذراء سيدة جبل الكرمل. وأخيراً في دهوك، في منطقة كردستان، في شمال العراق، في دير القديس يوسف، الذي تقيم بجانبه اثنتان من المكرسات، في ديرهن الخاص، دير مريم العذراء سيدة جبل الكرمل. في كل هذه الأماكن، يتم استقبال الرياضات الروحية الفردية والجماعية وإحيائها.

في دهوك، تم تأسيس مجموعتين جديدتين، واحدة للكرمل العلماني، والثانية لأخوية ثوب العذراء. والأب غدير يزور الدير هناك مرة في الشهر.

أما الرسالة على شبكة الإنترنت فقد بدأت في عام 2012، بسبب انعدام الأمن في التنقل في مدينة بغداد ونحو الشمال. وكانت فعالية "الرياضات الروحية

عبر النت" لإقليم باريس الكرملي، إحدى نتاجات هذه الرسالة على شبكة النت؛ فقد كانت تُتَرجَم للعربية، مع بعض الإضافات وبتصرف من قبل الأب غدير، وتوضع على النت.

كان العدد الكبير من هذه النشاطات وتنوعها مصدر تشجيع وفرح للأب غدير، الذي كان يعاني بالطبع من عزلته في دير الكرمل.

كانت حياته معلقة أحيانا بخيط، فعلى سبيل المثال، في آذار 2013، وفي طريق عودته من دهوك إلى بغداد، تَعَرَّض لحادث خطير، فقد انقلبت به سيارته عدة مرات وسقطت في منخفض. هو نفسه لم يصب بأذى وتم رفعه هو والسيارة من الحفرة بفضل مساعدة عشرات الأشخاص وتدخل إحدى دوريات الجيش التي كانت مارة من نفس المكان. تم إصلاح السيارة بسرعة، مجاناً، لتتمكن من السير والوصول إلى بغداد. مثال رائع على التضامن العراقي في بعض الظروف.

كانت وحدة الأب غدير موضوع رسالة سيادة المطران جان سليمان، رئيس أساقفة بغداد على اللاتين، إلى مجمع إقليم باريس الكرملي المنعقد في نيسان 2014، مطالباً فيها أعضاء المجمع إيجاد حل لهذا الوضع.

الأعوام 2014 – 2020

خلال هذه السنوات، بالكاد تغير وضع العائلة الكرملية. كانت هناك حالات هجرة لبعض الأسر الملتزمة. وكان لدى الأب غدير ما مجموعه حوالي سبعين شخصاً ينتمون إلى مختلف المجموعات الكرملية التي كان يهتم بها. جماعة الكرمل العلماني كانت الأكثر عدداً.

زار الأب أوليفييه–ماري روسو، المشرف على إرسالية بغداد، العراق ست مرات بين عامي 2014 و2017! أما بالنسبة للرئيس الإقليمي، الأب كيوم ديهورتر، فقد جاء مرتين، وكانت إحداها زيارة رعوية. كما وزار الأب دانيال تشاونينج، أحد مستشاري الرئيس العام، من القيام بزيارة إرسالية بغداد نيابة عن الرئيس العام.

من خلال هذه الزيارات العديدة وغيرها من الروابط، دَعَمَ إقليم باريس الكرملي التي إرسالية بغداد هي جزء منه، الأب غدير، إنسانياً وروحياً ومادياً، خاصة من خلال جمع بعض الأموال في كانون الأول 2016، والمخصصة لمساعدة النازحين.

في الدير: كان الأب غدير يعيش ساعتي الصلاة الصامتة المطلوبة من الكرمليين كل يوم، والقداس اليومي مع صلاة الصباح (مع ثلاثة أو أربعة أشخاص)، وكذلك صلاة المساء وصلاة قبل النوم. وكان الجدول الزمني يتغير في المساء حسب رسالة ذلك اليوم.

تمتلك الإرسالية بعض العقارات التي تعتاش منها، لكن وضعها معقد بسبب القوانين والحالة العامة في العراق، وهو بلد لم تستقر فيه بعد الحياة السياسية والاقتصادية. كانت إدارة الممتلكات العقارية هذه صعبة وخطيرة، وقد تم إهمالها لمدة طويلة في الواقع لأنها لم تكن تُشكِّل أولوية. ومع ذلك، بُذِلَت جهود كبيرة على المستوى القانوني، من أجل ترتيب وإعادة بناء الملفات المفقودة.

وكان هناك مشروع لإعادة بناء وتأهيل مدرسة القديس يوسف، وهي مدرسة تم استردادها عام 2013.

عام 2015، كان عام الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لولادة القديسة تريزا الآفيلية. بهذه المناسبة، نظم الأب غدير سلسلة من 10 محاضرات ومهرجاناً لمدة يومين في 14 و 15 تشرين الأول.

في عام 2016، كانت هناك علامات أخرى على حيوية عائلة الكرمل، مثل إجهار 15 عضو من جماعة الكرمل العلماني وعودهم النهائية في الرهبانية الكرملية العلمانية في التاسع من كانون الثاني، و3 آخرين في 16 تموز.

في هذه السنوات، غطى الأب غدير عدداً كبيراً من النشاطات الروحية، وإليكم القائمة:

في بغداد، القداديس التي يحضرها عادة مؤمنين الحي وهم من مختلف الطوائف المسيحية؛ المرافقة الروحية يومين في الأسبوع؛ مرافقة مجموعات مختلفة، جماعة الكرمل العلماني (الرهبانية العلمانية الكرملية) (جماعة القديسة تريزا ليسوع الآفيلية) حوالي عشرين شخصاً، المكرسات أو بنات مريم العذراء سيدة جبل الكرمل (سبعة أشخاص)، جماعة ثوب العذراء (حوالي ستين شخصاً)، جماعة إخْوة المسيح (سبعة عشر شخصاً)، وهي مجموعة يلتزم أعضاؤها بشكل كبير في كنائسهم المختلفة؛ مساعدة اللاجئين الذين كانوا ضحايا دخول داعش إلى الموصل في يونيو 2014؛ مساعدة الفقراء؛ محاضرات روحية في مختلف كنائس بغداد. استقبال الرياضات الروحية الفردية والجماعية في دَيرَي بغداد؛ الرسالة عبر النت، محاضرات، وكرازات الأحد، رياضات روحية عبر النت في زمن المجيء والصوم الكبير.

في دهوك، كانت النشاطات الروحية مهمة أيضاً: كانت كابيلا دير القديس يوسف تستقبل حوالي ستين شخصاً في قداس الأحد؛ المرافقة الروحية؛ المكرسات الثلاثة الموجودات في دهوك تعملن في خدمة بيت الرياضات الروحية والمركز الروحي؛ جماعة الكرمل العلماني (جماعة القديس يوسف) بستة عشر شخصاً؛ جماعة ثوب العذراء (أو ثوب الكرمل) حوالي أربعين شخصاً؛ جماعة الشبيبة، منذ عام 2016، كان يتكون من حوالي ثلاثين شخصاً؛ مساعدة اللاجئين الأيزيديين والمسيحيين؛ مساعدة الفقراء؛ محاضرات في أماكن مختلفة في أربيل ودهوك. استقبال الرياضات الروحية الفردية والجماعية.

في آذار عام 2017، كان الأب غدير ينتظر وصول الأخت آن–ماري بيرون، الرئيسة العامة لكرمليات القديس يوسف برفقة مساعدتها الأخت ريما، كي يقرروا فيما إذا كان المشروع الذي تم إجهاضه في عام 2011 بسبب الحرب الأهلية في سوريا يمكن تنفيذه آنذاك. إن تحقيق هذا المشروع سيكون بمثابة دعم لحياة الأب غدير، مع وجود جماعة رهبانية كرملية جديدة. ولحسن الحظ، تحقق هذا المجيء الذي طال انتظاره لكرمليات القديس أخيراً في أيلول عام 2018.

ومن الجدير بالذكر أن طيلة هذه السنوات، دَعَمَ إقليم باريس، برهبانة الكرمليين وعلمانييه، إرسالية بغداد الكرملية. وكانت جماعات الكرمل العلماني لإقليم باريس يتناوبون فيما بينهم، شهراً بعد آخر، في الصلاة من أجل نية إرسالية بغداد.

زار الرئيس الإقليمي، الأب كيوم ديهورتير، بغداد عدة مرات، مرة في عام 2017، مرتين في عام 2018، ومرة في عام 2019، أي أربع زيارات في فترة رئاسته التي تدوم ثلاث سنوات، من 2017–2020.

في العراق، كان هناك تحسن في الوضع الأمني بعد هزيمة داعش عام 2017. لكن البلاد كانت تكافح من أجل التعافي. فالحكومة فشلت في إعادة بناء البنية التحتية واستعادة الأمن والاستقرار. وينطبق الشيء نفسه على عودة النازحين والقضاء على الميليشيات، وعلى حصر الأسلحة بيد الدولة. باختصار، فشلت الحكومة في فرض سيادة الدولة وإنهاء تدخل الدول الأخرى في شؤون العراق، وإيران على وجه الخصوص.

في خريف عام 2019، وقعت مظاهرات مناهضة للحكومة احتجاجاً على البطالة والفساد وتدهور الخدمات العامة ووصاية إيران. وأصبحت هذه الحركة انتفاضة شعبية وسلمية حقيقية. لكن حملة القمع التي شنتها قوات الأمن، وخاصة الميليشيات الموالية لإيران، خلفت مئات القتلى وعشرات الآلاف من الجرحى.

في 30 تشرين الثاني 2019 استقال رئيس الوزراء عادل عبد المهدي. كانت البلاد آنذاك على شفا حرب أهلية.

في شباط عام 2019، في لقاء مجلس الرئاسة الاستثنائي للرهبانية في مدينة "جاوا"، أطلق الأب كيوم، نداءً إلى زملائه في الأقاليم الأخرى في جميع أنحاء العالم لإسناد إرسالية بغداد، وطلب منهم إرسال إخوة هناك لإعادة تأسيس جماعة رهبانية هناك. لكن لم تأتِ أي إجابة بعد ذلك، حتى اليوم، في نهاية عام 2022!

بدا مستقبل إرسالية بغداد قاتماً أكثر فأكثر، وكان الحد الأدنى هو مواصلة مرافقة إقليم باريس الكرملي للإرسالية خطوة بخطوة.

لم يتغير برنامج الأب غدير اليومي: ساعتان من الصلاة الصامتة. القداس اليومي مع صلاة الصباح (مع ثلاثة إلى أربعة أشخاص)، صلاة المساء وصلاة قبل النوم. كما استمرت نشاطاته الروحية العديدة. في عام 2019، بدأ رسالة جديدة على اليوتيوب.

لكن موارد الإرسالية الخاصة أخذت بالتضاؤل. فقد وقعت احتجاجات خريف 2019 في مناطق في بغداد، قريبة من المتاجر التي تمتلكها الإرسالية، فأثَّر ذلك بالتالي على عمل هذه المحال وبلغ الأمر إلى إغلاقها. ونتيجة لذلك، لم تعد الإيجارات تُدفَع للإرسالية؛ وقد أُحرِقَت بعض هذه المتاجر خلال الاحتجاجات.

كانت هناك مشكلة أخرى، وهي أن دير عذراء فاطمة، الذي بُني عام 1956، بدأ يُظهر علامات الهشاشة. فقط كانت هناك شقوق على الجدران والسقف، والتي تفاقمت بشكل خطير بسبب زلازل العامين 2018 و 2019.

تقرر بموجب ذلك إعادة بناء أرضية السطح وإصلاح الشقوق في الجدران وتدعيمها. بدأ العمل في أيلول 2019 واستمر إلى ربيع عام 2020 ببطء وبصعوبة وبتكلفة عالية جداً بسبب الإغلاق الكامل للحي القريب من السفارة الإيرانية والمنطقة الخضراء، وهي منطقة محمية تابعة للحكومة. واجه العمال والمواد صعوبات كبيرة في دخول الحي.

من جانب آخر، كان من دواعي فرح الإرسالية هو تمكنها من إعادة ترميم وإفتتاح مدرسة القديس يوسف. كانت هذه المدرسة، التي أسسها الأب عمانوئيل للقديس ألبرتس والكرمليون عام 1737، أول مدرسة في مدينة بغداد آنذاك. وكان نظام صدام حسين قد أممها مثل غيرها من المدارس الأهلية عام 1974. تم استرداد المدرسة عام 2004. لكنها بقيت بيد الحكومة التي كانت تدفع إيجاراً سنوياً عليها. وبعد فترة لم تعد الحكومة قادرة على دفع هذا الإيجار، فقَرَّرَت إعادة المبنى أخيراً إلى الآباء الكرمليين في 19 شباط 2013، وكانت في حالة يرثى لها. بعد سنة من ذلك بدأت مأساة داعش ونزوح العديد من المواطنين في كل مكان، فقرر الآباء الكرمليون تهيئة المدرسة لإيواء عوائل النازحين فيها، واستمر ذلك لأكثر من عامين ونصف العام (2014–2016).

في عيد القديسة تريزا الطفل يسوع، في الأول من تشرين الأول 2018، أعيد افتتاح المدرسة. واتفق الآباء الكرمليون مع كرمليات القديس يوسف كي يُشرفوا على إدارة المدرسة والتدريس فيها، وكانوا قد أسسوا جماعة لهن كما ذكرنا ذلك أعلاه. كانوا في البداية ثلاث راهبات، عملن في المدرسة، إحداهن هي المديرة. ويسكن منذ ذلك الحين في دير القديس يوسف الذي كان قد تمت إعارته للراهبات الدومينيكان في سبعينيات القرن العشرين.

بالنسبة لإرسالية بغداد الكرملية، استمر تركيزها على نشر روحانية الكرمل بين العلمانيين، والعمل من أجل توسيع العائلة الكرملية في العراق، حيث بدا أن استقبال المرشحين للدعوة الكرملية كان غير ممكن في ظل الظروف الحالية. من بين العقبات العديدة التي تَحُول دون وجود دعوات كرملية، تجدر الإشارة إلى أنه لا توجد رعية لاتينية حقيقية في العراق، وأن المرشحين المحتملين للدخول إلى

الكرمل، والذين ينتمون إلى طوائف مسيحية أخرى، يجب أن يحصلوا على موافقة أسقف كنيستهم، وللأسف لم تكن هذه الموافقة تعطى بسهولة!

الأعوام 2020 – 2022

بحلول عام 2020، تفاقم انهيار الاقتصاد مع انخفاض أسعار النفط وانتشار وباء كوفيد 19 (كورونا). وكان البلد يواجه عندها أزمة رفض نتائج الانتخابات البرلمانية؛ وعدم اتفاق الأحزاب المتصارعة على تشكيل الحكومة، وبالتالي لم يكن هناك رئيس وزراء؛ وكانت الحكومة الانتقالية فاسدة، وكان لكل حزب شيعي ميليشيا خاصة به.

في بداية عام 2020، أوقفت الكنيسة الكلدانية جميع أنشطتها الدينية بسبب الوباء. وكان المسيحيون النازحون يفقدون الأمل في العودة إلى القرى المدمرة ورؤية وضعهم الاجتماعي والاقتصادي يتحسن. لهذا ظلت الرغبة في الهجرة حاضرة وقوية جداً، مما يشكل تهديداً لوجود المسيحية في البلاد!

بما أن دير الآباء الكرمليين يقع بالقرب من المنطقة الخضراء، حيث توجد مؤسسات الدولة، فقد أصبح سجناً لأن المنطقة كانت تُطوق بسهولة فيصعب الدخول إليها والخروج منها. لهذا شيئاً فشيئاً لم يعد المؤمنون يحضرون قداس الأحد في الكرمل، بل يذهبون إلى أماكن أكثر أمناً، وقد هاجر الكثيرون منهم. هكذا، في قداس الأحد، انتقلنا من أربعمائة شخص يحضر القداس إلى حوالي أربعين!

بخصوص الرهبانية العلمانية الكرملية (الكرمل العلماني) كان هناك دائماً أعضاء حيويين، لكن العديد منهم تركوا البلد وهاجروا.

خلال فترات منع التجوال أو الحَجْر بسبب جائحة ورونا، بقي الأب غدير لفترة طويلة دون الخروج من الدير، باستثناء شراء الطعام من الأسواق القريبة من الدير. فاستغل تعليق جميع تنقلاته في بغداد أو سفره إلى دهوك، بالإستفادة من هذا الوقت، وقام بتسجيل محاضرات عبر اليوتيوب وتأليف الترانيم بوتيرة أكبر من ذي قبل، كما وبدأ في إلقاء المحاضرات عبر النت وعبر تطبيق "زوم"، ومواصلة نشاطاته مع المجموعات المختلفة الموجودة منذ سنوات، في بغداد ودهوك، بل وارتبط حتى بجماعات خارج الحدود، عبر تطبيق "زوم" مع جماعات الشتات المسيحي العراقي.

أهم هذه الجماعات هي أخوية عذراء فاطمة، وهي جماعة مهمة تأسست في سبعينيات القرن الماضي واستمرت إلى التسعينيات، وكان لها إشعاعاً مهما في بغداد آنذاك. إذن أجيال من الشبيبة العراقية والتي هاجرت إلى بلدان مختلفة من العالم. إنهم يعيشون حالياً في عشرات البلدان في مختلف القارات: أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا)، أوروبا، أستراليا، نيوزيلندا، إلخ. تستمر هذه الجماعة إلى اليوم في الإجتماع مرة في الشهر، على الرغم من صعوبة العثور على جدول زمني يناسب الجميع. كل هؤلاء الأشخاص المنتشرين في جميع أنحاء العالم لَسُعداء جداً بالحفاظ على هذه الصلة مع الكرمل في العراق، وفاء منهم وامتناناً لمختلف الآباء الكرمليين الذين عرفوهم.

وكان لمدرسة القديس يوسف أيضا نصيباً من المعاناة الناجمة عن جائحة كوفيد 19، فقد تم إغلاقها عدة مرات أثناء الجائحة بسبب الحظر المفروض، ومع ذلك تمكن النشاط التعليمي من الاستمرار من خلال البث عبر النت ومنصّات خاصة للتواصل. اليوم، تعتبر هذه المدرسة واحدة من أفضل المدارس في بغداد ويتطلع العديد من الآباء إلى الحصول على مكان لأطفالهم فيها.

وبفضل وسائل الاتصال الجديدة أيضا، واصلت الأخوات المكرسات، بنات مريم العذراء سيدة جبل الكرمل، خدمتهن في مساعدة المحتاجين وبوسائل جديدة.

بشكل عام، كانت أزمة جائحة كورونا فترة صعبة على الجميع، ولكنها فتحت أيضا طرقاً جديدة للخدمة والتواصل ونشر الإنجيل وتبادل الخبرات.

مازال الأب غدير يعيش في وحدة دير عذراء فاطمة في بغداد، عاملاً في حقل الله، في خدمة الإرسالية الكرملية في العراق.

الأب روبير أركاس الكرملي (إقليم باريس)

الكرمل في العراق: **مسيرة تتواصل** (2023 – 2026)

يوبيل الأربعمائة سنة: **عيد الوفاء والشكر**

في شباط 2023 عاش كرملُ العراق أياماً لن تُنسى، إذ احتفلت العائلة الكرملية بمرور أربعمائة سنة على وصول الآباء الكرمليين إلى أرض الرافدين، البصرة أولاً ثم بغداد، ثم دهوك. وجاء الأب العام "ميغيل ماركيز" (Miguel Márquez) على رأس وفدٍ ضمّ إخوةً من فرنسا وروما ومصر ولبنان، انضمّت إليهم من العراق راهبات كرمل القديس يوسف والمكرّسات (بنات مريم العذراء سيدة الكرمل) وأعضاء الكرمل العلماني وأصدقاء الدير، فتكوّنت قافلةُ حجٍّ مثّلت بحقّ وجوهَ الكرمل المتعدّدة في هذا البلد.

بدأ الاحتفال حيث بدأت القصة: في البصرة، بوابة الكرمل إلى العراق منذ سنة 1623. وكانت كنيستنا هناك، **كنيسة القديسة تريزا الطفل يسوع،** قد استعادت رونقها بعد ترميمٍ شاملٍ شمل الدير الملحق بها، حتى غدت مهيّأةً لاستقبال جماعةٍ رهبانية جديدة متى شاء الله. وفي يوم الأحد 19 شباط أُقيم قداس الشكر برئاسة المطران جان سليمان، رئيس أساقفة بغداد على اللاتين، وبمشاركة أساقفة من الكنيستين الكلدانية والسريانية وجمعٍ من المؤمنين، وألقى الأب ميغيل الرئيس العام للرهبنة العِظَة. وهكذا عادت الصلاة تعلو في المكان الذي غادره آخر الآباء الكرمليين في ثمانينات القرن الماضي أيام الحرب مع إيران.

ولم يفت الحجّاجَ أن يزوروا **أور الكلدانيين،** المدينة التي انطلق منها أبونا إبراهيم، أبو المؤمنين، نحو أرض الموعد؛ فكانت الزيارة تذكيراً بأن رسالة الكرمل في العراق متجذّرة في أرضٍ هي مهدُ الإيمان نفسه.

ثم انتقل الاحتفال إلى بغداد، حيث ألقى المطران جان سليمان محاضرةً عن "**الكرمليون في العراق: أربعمائة سنة من الحضور**"، استعاد فيها سيَر المرسلين الكبار، وتحدث عن الدور المهم للأب العلامة أنستاس ماري الكرملي (العراقي الجنسية) والأب روبير بيولاي (الفرنسي الجنسية). وتلت المحاضرةَ شهاداتٌ حيّة لأبناء العائلة الكرملية عمّا صنعته روحانية الكرمل في حياتهم، ثم القداس الاحتفالي في الكاتدرائية اللاتينية برئاسة مطران اللاتين وحضور السفير البابوي المطران ميتيا ليسكوفار. كما عُرض فيلم وثائقي مدّته ساعة عن رسالة الكرمل في العراق اليوم، أَنجزه الأب غدير خصيصاً لهذه المناسبة.

وتوّج الاحتفالَ حدثٌ رمزيّ بليغ: تدشين نصبٍ تذكاري للأب أنستاس ماري الكرملي (1947 – 1866) ، أول كرملي عراقي وأحد أعلام اللغة العربية، قرب كنيسة الإرسالية القديمة في قلب بغداد التاريخية، تلك الكنيسة التي بُنيت بين 1866 و1871. فوقف تمثال ابن الكرمل شاهداً أمام المارّة على أربعة قرون من العطاء.

وشهد الجميع أن أثمن ما في هذه الأيام كان الفرح: فرح عائلةٍ كرمليةٍ حيّة رغم قلّة العدد، وشعورٌ مشترك بأن رسالة الكرمل في العراق لم تنتهِ، بل تتواصل بنعمة الله.

عائلة كرملية حَيّة حَوْل راهبٍ واحد

منذ سنة 2013 والكرمل في العراق يقوم على راهبٍ واحد. لكنّ هذه الوحدة لم تكن عُقماً، بل أثبتت السنوات أن الكرمل حاضرٌ وخصب بأشكالٍ متعدّدة:

* جمعية بنات مريم العذراء سيدة جبل الكرمل (المعروفات بالمكرّسات):
وهي جمعية مؤمنين خاصة تأسست في 29 حزيران 2001، تعيش عضواتها روحانية الكرمل في قلب العالم، وهنّ الساعد الأيمن للرسالة في بغداد ودهوك. وفي سنة 2026 احتفلت الجمعية بيوبيلها الفضّي، خمسٍ وعشرين سنة من التكريس والعطاء والخدمة.

* أخوية أخوة المسيح، التي تأسست في 8 آب 1998، وهي جماعة خصبة يلتزم أعضاؤها التزاماً فاعلاً في كنائسهم المختلفة.

* الكرمل العلماني(OCDS) : **جماعة القديسة تريزا ليسوع الأفيلية**، في بغداد منذ 1 تشرين الأول 2008... **وجماعة القديس يوسف** في دهوك والتي تأسست في 5 آذار 2014.

* أخوية ثوب العذراء (سيدة الثوب) منذ 22 أيلول 2008.

* كرمليات القديس يوسف، بحضورهنّ التربوي والرسولي في بغداد منذ 2018
هذه الجماعات كلّها تُرافَق روحياً من قبل الأب غدير الكرملي بمحاضرات ولقاءات دورية ورياضات روحية، فتبقى شعلة الكرمل مضيئةً في أكثر من مكان.

دير دهوك: **مفاجأة الله في الشمال**

لم يكن أحدٌ يخطّط لفتح ديرٍ في دهوك؛ فنحن نفكّر عادةً في مشاريع نتصوّرها نحن المهمّة، لكنّ الله يفاجئنا في كل مرة بشيءٍ آخر، فيجعلنا نتواضع من جديد ونسير خلفه بفرحٍ وثقة رغم محدوديتنا.

منذ سنة 2011 والحضور الكرملي في دهوك ينمو باطّراد. واليوم يضمّ ثلاثة بيوت: دير المكرّسات، والبيتان الآخران يمثلان دير الرهبان الكرمليين مع المركز الروحي القادر على استقبال نحو 35 شخصاً للرياضات الروحية الفردية والجماعية، وقد جرى مؤخراً توسيع الكابيلا لتتّسع لعددٍ أكبر من مؤمني دهوك، وتزيينها بصورٍ مستوحاة من الفن الديني العريق.

وفي دهوك، كما في بغداد، تتواصل خدمة الجماعات الكرملية ومرافقة الرجال والنساء والشابات ومساعدة المحتاجين والمحاضرات هنا وهناك. ويُضاف إلى ذلك بيت الرياضات الروحية في أربيل حيث تقام في بعض الأحيان رياضاتٌ روحية لجماعات عائلة الكرمل.

إن تطوّر رسالة دير دهوك يذكّرنا دوماً بحقيقةٍ ننساها كثيراً: غنى الرسالة ليس في العدد ولا في الأعمال الكبيرة، بل في مقدار الحبّ والغَيرة اللذين نضعهما في كل ما نعمل، معتمدين على نعمة الله وقوّته، لننشر روحانية الكرمل التي هي في قلب الكنيسة النابض، وهي عينُها بشرى الإنجيل السارّة: الله يحبّنا بلا شروط، ويشتاق أن ندخل معه في علاقة حبٍّ حميمة، بابُها المفضَّل الصلاة الصامتة.

من المحنة تخرج رسالة: الكرمل يعبر الحدود

كانت سنوات جائحة كورونا محنةً قاسية، لكنها فتحت أمام الرسالة طرقاً لم تكن في الحسبان. فحين أُغلقت الأبواب وفُرض الحجر، وُلد رسولٌ رقمي: محاضرات مباشرة عبر زووم، وعظات وتراتيل ومحاضرات في الروحانية الكرملية تُنشر على اليوتيوب، ولقاءات شهرية تجمع أبناء الكرمل المنتشرين في العالم.

وأجملُ ثمار هذا الطريق الجديد جماعةُ أبناء أخوية عذراء فاطمة القدامى، كما ذكرنا أعلاه، والذين تربّوا في أحضان الدير في السبعينات والثمانينات والتسعينات ثم شتّتتهم الهجرة في أكثر من عشرة بلدان في القارات كلّها. هؤلاء يلتقون شهرياً عبر الشاشات، يجمعهم الحنين إلى الكرمل والوفاء للآباء الذين خدموهم وعلّموهم. فصار للكرمل العراقي رسالةٌ إلى الشتات: "نحن نلحق بأبنائنا أينما كانوا."

مدرسة القديس يوسف: قيامة بعد أربعةٍ وأربعين عاماً

قصة مدرسة القديس يوسف وحدها آيةٌ في الرجاء. فهذه المدرسة العريقة، التي تعود جذورها إلى سنة 1737 وهي أولى مدارس بغداد، أمّمتها الدولة سنة 1974. وفي 19 شباط 2013 استعادها الدير بحالةٍ يُرثى لها، فَوَضَعَها الأب غدير الكرملي أولاً في خدمة العائلات النازحة بعد اجتياح داعش للموصل (2014 – 2016)، ثم بعد أعمال ترميمٍ هائلة أعادت فتح أبوابها في عيد القديسة تريزا الطفل يسوع، في 1 تشرين الأول 2018، بعد توقّفٍ دام أربعةً وأربعين عاماً.

واليوم تُعَدّ، بشهادة الكثيرين، من أفضل مدارس بغداد، يتسابق الأهالي، مسيحيين وغير مسيحيين، لحجز مقاعد لأبنائهم فيها. بالإضافة إلى دورها التربوي المباشر فهي تطمح إلى لعب دورٍ مهم في زرع روح الشراكة والتسامح وقبول الآخر بين أبنائها، أبناء هذا الوطن الحبيب.

كنيسة مريم العذراء في منطقة الشورجة: شمعة لا تنطفئ

في قلب بغداد القديمة تقف كنيسة مريم العذراء، كنيسة الآباء الكرمليين التاريخية، مزاراً يقصده اليوم المسلمون قبل المسيحيين، يوقدون الشموع أمام أيقونة

العذراء كلّ يوم. ورغم أن الحيّ خلا من المسيحيين وأن البناية تعاني خطر السقوط بسبب المياه الجوفية، علماً بأنها تُعتَبَر من التراث الوطني وأن صيانة هذا البناء التاريخي مسؤولية الدولة رسمياً، فإن الدير يتعهّده بصمتٍ منذ عشرات السنين، حفاظاً على شاهدٍ ثمين من شواهد الحضور المسيحي في قلب العاصمة، وجسراً هادئاً من جسور اللقاء بين الأديان.

سنوات عصيبة... **ورسالة لا تتوقف** (2024 – 2026)

لم تكن السنوات الأخيرة رحيمةً بالعراق. فالأزمات السياسية والاقتصادية المتلاحقة، وتردّي الخدمات، وشحّ المياه، أثقلت حياة الناس، ودفعت المزيد من العائلات المسيحية إلى الهجرة، رغم التخلص من داعش منذ 2017، حتى إن كنائس كانت تغصّ بالمصلّين باتت شبه فارغة. وفي مطلع سنة 2026 اندلعت الحربٌ الإقليمية[3] وأغلقت المطارات وشلّت البلاد، حتى إن راهب الكرمل الوحيد، الأب غدير الكرملي، بقي محتجزاً في دهوك اثنين وخمسين يوماً، فاحتفل بعيد الفصح لأول مرة في حياته، ومنذ دخوله الكرمل في 1981، بعيداً عن بغداد.

ومع ذلك، لم تتغيّر حياة الكرمل في جوهرها: الصلاة الصامتة لمدة ساعتين في اليوم والقداس اليومي، والمرافقة الروحية، وخدمة جماعات العائلة الكرملية في بغداد ودهوك، والمحاضرات في الكنائس المحلية، والرسالة عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، واستقبال الرياضات الروحية في أديارنا التي تبقى من الأماكن النادرة في العراق المفتوحة لهذه الخدمة.

---

[3]) بين إيران من جهة، والولايات المتحدة وإسرائيل من جهة أخرى

وبقيت الثقة في حضور الله وتسييره لأمور حياة الدير... نقوم بما نستطيع رغم محدوديتنا في كل المجالات، واثقين بعناية الله.

وفي كانون الأول 2025 أنعش قلوبَنا مجيءُ إخوةٍ زائرين من فرنسا وإيطاليا أمضوا أياماً بين دهوك وبغداد، فكانت زيارتهم عربون شركةٍ حيّة مع الرهبنة الأم، وتأكيداً بأن كرمل العراق ليس وحده، وأن الرجاء بإرسال إخوةٍ جدد لإعادة بناء الجماعة الرهبانية في بغداد ما زال حيّاً تتواصل من أجله المساعي والصلوات.

نظرة إلى الأمام: مشاريع الرجاء

يختم كرملُ العراق قرنه الخامس وعيناه على المستقبل، بمشاريع تحمل الرسالة إلى جيلٍ جديد:

مدرسة الكرمل للحياة الروحية: مشروعٌ فب طور البناء.. مدرسةٌ مكرّسة للروحانية الكرملية وكلمة الله، مفتوحة لأبناء جميع كنائس بغداد، تُنقل دروسها أيضاً عبر زووم ويوتيوب لتصل إلى كل مكان. مشروعٌ كبير، ربما أكبر من طاقة راهبٍ واحد، لكنّ الذي يدفع إليه هو الربّ نفسه، وهو الذي يتمّمه.

وكذلك، موقع كرمل العراق الإلكتروني وتطبيقه: مشروعُ منصةٍ رقمية تجمع تراث الكرمل العراقي ورسالته، المحاضرات والفيديوهات والعِظات والترانيم، لتكون في متناول أبناء الكرمل في الداخل وفي بلدان الانتشار، ذاكرةً حيّة ومدرسةً مفتوحة لا تعرف الحدود.

خاتمة

أربعمائة سنة وأكثر مرّت منذ رسا الآباء الكرمليون الأوَلون في البصرة. تعاقبت في خلالها الإمبراطوريات والحروب والأوبئة والهجرات، ورحل رهبانٌ وجاء رهبان، حتى بقي في الأرض راهبٌ واحد. لكنّ الرسالة لم تنقطع يوماً.

فتحيةُ حبٍّ وامتنان لكل الإخوة الكرمليين الذين عاشوا في هذا البلد أو مرّوا فيه ووهبوا حياتهم ليخبروا الآخرين كم يحبّنا الله؛ نطلب شفاعتهم كي يُعين الربُّ يسوع عائلةَ الكرمل في العراق على مواصلة الصعود خلفهم إلى جبل الكرمل.

الصلاة والسجود والمرافقة الروحية وخدمة الفقراء والتنشئة الروحية وعيش الشهادة ليسوع المسيح كل يوم، في الخفاء وببساطة: هذا هو جوابنا على الظلام المحيط. شعلةٌ صغيرة في العتمة، لكنها لا تنطفئ، لأن الذي أوقدها هو الرب يسوع نفسه، نور العالمين. أمين.

كلماتٌ تُلخّص كل شيء..

قبل قرون، وقفت أمنا القديسة تريزا ليسوع الأفيلية، مُصلِحة الكرمل، لتكتب كلماتٍ لم تَعْلَم أنها ستَصِف يوماً ما رَسَمَه الكرملُ على أرض الرافدين.

"لا يُقلِقَنَّك شيء، لا يُرهِبَنَّك شيء، كُلُّ شيءٍ يزول، اللّهُ لا يتغيّر. إنَّ الصبرَ ينتصرُ على كُلِّ شيء. مَنْ يَمتلِكُ اللّه لا يُعوزُه شيء. اللّهُ وَحدُه يكفي" [4].

هذه الكلمات ليست شعراً رومانسياً؛ إنها تلخيص لأربعمائة سنة وأكثر من الحضور الكرملي في العراق. في كل راهبٍ عاش هنا وأحبّ هذه الأرض

---

[4]) هذا النص وُجِدَ في وريقة موضوعة في كتاب صلاتها بعد وفاتها.

وأبناءها، كان الله وحده الكنز الذي يكفي. في كل لقاءٍ روحي وكل رياضةٍ صامتة وكل كلمةٍ قيلت في الخفاء لإنسانٍ محطّم، كان الربّ هو الثبات وسط العواصف. وفي البصرة وبغداد ودهوك، وعبر الشاشات إلى أبناء الشتات في قارات الأرض كلّها، ما زال الكرمل يردّد أن الله وحده يكفي.. ولعل في كلام الرب يسوع نفسه في إنجيل يوحنا ما يُضيء هذا السرّ ويُجمّله. فقد قال يسوع لتلاميذه قُبيل آلامه، بصوتٍ يبدو كأنه موجَّهٌ أيضاً إلى كل كرملي وطئت قدماه أرض الرافدين: ((**لم تَختْاروني أنتُم، بل أنا اختَرتُكم وأقمتُكُم لِتَذهَبوا فَتُثمِروا ويَبْقى ثَمَرُكم، فيُعطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ ما تَسأَلونَهُ بِاسمي**)) (يوحنا 15: 16)

نَعَم، الثمرُ يدوم. رغم الحروب، رغم الأوبئة، رغم الهجرات، رغم أن الكثرة صارت واحداً..

الثَمَرُ يدوم: في قلبٍ اكتشف أن الله يحبّه، وفي عائلةٍ التمست طريق الصلاة، وفي طفلٍ تعلّم في مدرسة الكرمل أن يقبل الآخر ويحترمه، وفي مسلمٍ يُوقد شمعةً كلّ يوم أمام أيقونة العذراء في كنيسة الكرمل. هذا الثمر الذي لا يُرى بالعين المجرّدة هو الذي يُقنعنا أن نُكمل. وهو الذي يجعل شعلةً واحدة، صغيرةً كانت أم كبيرة، كافيةً لتُضيء عتمةً بأسرها..

يا رب، أتمِمْ أنتَ ما بدأتَه. آمين.

الرهبانية الكرملية

بدأت رسمياً في فلسطين
(جبل الكرمل) عام 1209

دخلت العراق (البصرة) عام 1623

وصلت الى بغداد عام 1721

وصلت الى دهوك عام 2011

إقليم باريس للرهبان الكرمليّين الحفاة